الباب الثالث

في الأسرة والمجتمع

بر الوالدين وصلة الأرحام

الحمد لله ، الرءوف بالعباد ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، خلق الرحم ، وشق لها اسماً من اسمه ، ودعا إلى برها ، وجعل الجنة فى صلتها ، والنار فى قطعها : (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) . وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله دعانا إلى بر الوالدين وصلة الأرحام ، ونهانا عن العقوق ، لأنه من أعظم الكبائر والآثام ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، البررة الكرام ، إلى يوم الدين.

أما بعد : فيقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) [1] .

أيها المسلمون :

هذه آية كريمة من كتاب الله ، تناولت أمرين صريحين من رب العباد ، أولهما : أن نعبده وحده لا نُشرك به شيئاً ، وثانيهما : أن نحسن إلى الوالدين وذوى القربى ، وبقية من عددتهم الآية .

والآية فى بساطتها تجعل حياة المؤمن ذات رباطين : رباط بالله الخالق قوامه العبادة الخالصة ، ورباط بالمخلوقات قوامه الإحسان الخالص. فحياة المؤمن تجرى ما بين حالين : وحال العبادة ، وحال الإحسان . وقد قامت العبادة على أساس أن الله واحد ، لا يتعدد ، ولا يتجزأ ، وقام الإحسان

---

(١) سورة النساء : ٣٦ .

على أساس أن الأمة واحدة لا تتفرق ولا تتجزأ ، وصدق الله العظيم حين عبر عن هاتين الوحدتين فى قوله : (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)[١] .

فعلاقة المؤمن بمجتمعه علاقة أراد الله لها أن تكون إحساناً فى كل شىء ، لأنها علاقة بين إخوة مهما تباعدت بهم الأنساب ، أو تفرقت الديار ، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ، وهو دائماً فى حاجته ، لأن الإحساس بالأخوة قرين الإيمان بالله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[٢] ، ومثَل المجتمع بهذه الصورة مثَل الشجرة ضربت بجذورها فى أرض الإسلام ، وارتوت بماء الإيمان ، فلا بد أن يصل إلى جميع فروعها وأغصانها وأوراقها دون استثناء ، لتكون ثمرتها أخوة باقية ، وإحساناً سخيًّا مباركاً .

فإذا ما سرنا مع الآية فى نسقها الرفيع وجدناها تفرض هذا الإحسان أولا للوالدين ، ثم لذوى القربى ، ثم لليتامى والمساكين ، ثم للجيران على مراتبهم ، وهكذا ، فبر الوالدين أول مراتب الإحسان المقرون بالتوحيد ، ثم بر ذوى القربى ، ثم بقية أصحاب الحق فيه ممن يدخلون فى نطاق الأخوة العامة ، ولكن ظروفهم المعيشية تجعلهم أحق بهذا الإحسان من غيرهم من البعداء .

والمهم أن نقف أمام أوامر الإسلام بالإحسان إلى الوالدين ، لنتابع الأسلوب الذى استعمله الحق سبحانه فى إقناع المؤمنين بأمره .

لقد سلك القرآن مسلكاً عاطفيًّا للإقناع بضرورة هذا الإحسان ، فصور للمؤمن مرة مدى ما تعانيه الأم فى حملها ، وفى ولادتها ، وفى رضاعها من تعب وإرهاق لا يطيقهما غيرها فى هذه الظروف : (حملَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ، ووضَعتْهُ

---

(١) سورة المؤمنون : ٥٢ .
(٢) سورة الحجرات : ١٠ .

كُرْهًا وحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)[١] ، (حملَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا علَى وَهْنٍ)[٢] . وصور للمؤمن مرة أخرى منظر الوالدين ، أحدهما أو كلاهما ، وقد شاب الرأس ، وانحنى الظهر ، وعجز العقل عن الفهم ، وأخذت التصرفات تسوء إلى حد الإثارة والإزعاج ، وكل ذلك يحدث من كبار السن . ومع ذلك فلا ينبغى لمن يؤمن بالله ربًّا واحدًا أن ينسى نفسه ، فينهرهما ، أو يوجه إليهما قولة فيها أدنى نقد لمسلكهما ، أو جرح لمشاعرهما ، فلسوف يكون هذا مصيره هو أيضاً بعد سنوات ، وما أسرع ما تمر الأيام ! وهنا نحس بلمسة رقيقة من الرحمن ، حين نقرأ قوله جل شأنه : (وقُلْ ربِّ ارْحمْهُما كَما ربَّيَانِى صغِيرًا)[٣] ؛ لقد استعمل القرآن لفظ (ربَّيَانى) الذى يأتى منه لفظ (رب) ، ليشعر المؤمن بقداسة جانبهما ، وبأن (التربية) جديرة بالعرفان ، من حيث كانت ذات اتصال (بالربوبية) ، وفى ذلك أعظم تقدير للأبوين ، اللذين فرض الله لهما الحنان والإحسان ، قولا وعملا : (وقُلْ ربِّ ارْحمْهُما كَما ربيانِى صغِيرًا) ، فدعاء المؤمن لوالديه أن يتولى الله عجزهما وضعفهما ، كما توليا عجزه وضعفه ، وأن يرحمهما كما رحماه صغيرًا .

ولنعد – أيها المسلمون – إلى بقية المراتب فى استحقاق الإحسان ، لنجد بعد الوالدين ذوى القربى ، وهم ذوو الرحم ، الذين يجتمعون مع المرء فى قرابة الدم ، بعد أخوة الروح ، فقرابة الدم هنا مكملة لصلة الأخوة فى الله ومؤيدة لها ، وإنما اهتم الإسلام بهذه الصلة لأنها زيادة على الأخوة المفروضة بين المؤمنين ، وقرابة الدم لا قيمة لها بدون الشركة فى الإيمان ، والأخوة فى الله .

---

(١) سورة الأحقاف : ١٥ .
(٢) سورة لقمان : ١٤ .
(٣) سورة الإسراء : ٢٤ .

وقد وجدنا فى القرآن إعظاماً لشأن القرابة التى يجتمع شملها فى ظل الإيمان ، فيقول الله سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى)[1] ، كما وردت أحاديث كثيرة تصور أهمية الرحم فى وصل أبناء الأُمة المسلمة ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : «أَنَا اللهُ ، وأَنَا الرحْمنُ ، خَلَقْتُ الرحِمَ ، وشَقَقْتُ لَهَا اسْماً من اسْمى ، فَمنْ وصلَهَا وصلْتُهُ ، ومنْ قَطَعهَا قَطَعْتُهُ »[2]. ويقول فى حديث آخر : «الرحمُ مُتَعلِّقَةٌ بالْعرْش تَقُولُ : منْ وصلَنِى وصلَهُ اللهُ ، ومنْ قَطَعنِى قَطَعهُ اللهُ »[3].

ولا ريب أن قاطع الرحم يحس بقطيعة الله له فى هذه الدنيا ، حين تضيق عليه مذاهب الأرض ، ويحس كأن جلده يكاد يهرب منه ، لأن ذوى قرباه يعيدون عنه ، وربما كانوا من جملة الحاقدين عليه ، وقد كان من الممكن أن يطفئ هذا الحقد بالصلة الكريمة ، لأنهم أولى الناس بصلته ، وبالعون السخى ، لأنهم أحق الناس بمعونته ، وهو قادر بهذا الإحساس على أن يمتلك أنفسهم ، يتحصن بها ، ويدفع أحقادها ، وبمثل هذا يحس بالسعادة والرضا ، لأنه أسعد ذوى رحمه ، ووصل ذوى قرباه .

إن قاطع الرحم يطارده الشؤم حيثما كان ، فهو معذب من الداخل بتأنيب ضميره ، وهو مطارد فى كل مكان بنظرات الحقد والاحتقار ، مهما صادف ابتسامات من المنافقين والمتملقين . هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فحسبه قطيعة الله له ، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلا ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : «والذى بعَثَنِى بِالْحقِّ ، لَا يقْبلُ اللهُ صدقَةً منْ

---

(١) سورة الشورى : ٢٣ .
(٢) رواه أبو داود والترمذى .
(٣) رواه البخارى .

رجُل ولَهُ قَرابةٌ مُحْتاجُونَ إلى صدقَته ، ويصْرِفُهَا إلَى غَيْرهم ، والذى نفسى بيده لا ينْظُرُ اللهُ إلَيْه يوم القيامة »[1] .

وحسبنا وصية من الله بالإحسان إلى ذوى القربى أنه جعلهم ضمن المستحقين لبعض الميراث ، حتى دون وصية ، قال تعالى : (وإذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ منْهُ وقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً معْرُوفاً)[2] ، وما ذلك إلا لأن الأُسرة نواة المجتمع ، ولا يمكن تغذيتها إلا بهذا البر المنظم ، لتؤتِى أُكلها فى تقويته ودعمه ، ولا تظلمُ منه شيئاً .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، والزموا الإحسان إلى والديكم وذوى قرباكم ، وصلوا أرحامكم بكل وسيلة ، بالكلمة الطيبة ، وبالمعونة الكريمة ، وبالرعاية المخلصة ، فهم أحق الناس ببركم ، وهم طريقكم إلى رضوان الله ومثوبته .

واذكروا دائماً أنه لا خير فى رجل يحرم أبويه من إحسانه ، مهما تخلق بالإحسان مع غيرهما ، فليس الإحسان تجارة نتخذها مع من نريد ، ونمنعها مَن نريد ، ولكنه عبادة لله ، مفروضة لأصحاب الحق فيها ، والله هو الذى انفرد ببيان مستحقيها ، وذكر مراتبهم ، وليس لنا إلا أن نذعن لأمره ، إن أردنا أن تكون عبادتنا له خالصة من شوائب الشرك والشك والجمود .

وليكنْ إحسانكم إلى ذويكم إحساناً بريئاً من الغرض ، مقصوداً به وجه الله ، فإن مما يتنافى مع الإخلاص أن نقيد عبادتنا بشروط ، أو أن نضع لها أسعاراً نطلبها عند اللزوم ، فليس هذا من شأن المؤمنين ، ولا هو من أخلاقهم . فنحن نحسن إلى ذوينا لأن الله أمر بالإحسان ، وجعله وسيلة لتربية عباده ، وحسبنا ذلك فائدة تعود علينا فى دنيانا ، وفى أخرانا ،

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) سورة النساء : ٨ .

وبقية الجزاء وديعة عند الله الذى تكفل به حين قال : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)[١] .

أسأل الله أن يرزقنا الإحسان فى عبادتنا ، وفى أخلاقنا ، وأن يجعله رائدنا فى أقوالنا ، وأفعالنا . اللهم آمين .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِى رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِى أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٢] .

وعن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : «قدمتْ علىّ أمى ، وهى مشركة ، فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاسْتَفْتَيْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : قدمت علىّ أمى وهى راغبة (أى طامعة فيما عندى) أَفَأَصِلُ أُمِّى ؟ قال : نعم ، صِلِي أُمَّكِ»[٣] .

---

(١) سورة الرحمن : ٦٠ .
(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه .

حقوق كُلّ من الزوجين على الآخر

الحمد لله ، الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى ، والذى خلق الزوجين الذكر والأُنثى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[1] .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، أحسن الناس خلقاً ، وأكرمهم عشرة ، وأعظمهم مودة .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه السادة الأخيار ، ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين . أما بعد :

فإن الأُسرة أساس المجتمع ، بل هى مجتمع صغير ، منها تتكون الأُمة ، وعليها تقيم عمادها ، وتوطد أركانها ، وبصلاح الأُسرة تصلح الأُمة ، وترقى إلى المجد ، وتنال ما تؤمل من غايات كريمة ، وتقدم منشود . وإذا فسدت الأُسرة كانت سبباً فى انحدار الأُمة إلى التأخر والشقاء .

والأفراد العاملون لخير الأُمة ورقيها هل كانوا إلا ثمرات طيبة للأُسرة التى تقوم الحياة فيها على الخلق والدين ، وحسن المعاملة بين رب الأُسرة وشريكته .

والعناصر الهدامة فى الأُمة التى تشيع الفساد ، وتحارب القيم ، وتعبث بالمصالح ، هل كانت إلا وليدة الأُسرة التعسة التى ضعف فيها الإحساس بالمسئولية .

وقوام الأُسرة رجل وامرأة جعل الإسلام علاقة الزوجية بينهما أكرم العلاقات الإنسانية وأسماها .

---

(١) سورة الروم : ٢١ .

وقد حاط الإسلام هذه العلاقة المقدسة بإرشاداته الكريمة ، وتوجيهاته الحكيمة مبيناً حقوق كل من الزوجين على الآخر ، حتى يلتزماها ويسيرا عليها فتتكون بذلك أسرة ترفرف عليها السعادة والاستقرار والأمن ، تمد المجتمع بلبنات صالحة ، تكون عماده المكين فى بنائه ونهضته .

والإسلام قد عنى أعظم العناية بالأسرة ، واهتم بها أشد الاهتمام ، فوضع القواعد التى تكفل لها الهناءة والحياة .

وقد جعل الله الرجل قواماً على الأسرة ، أى رئيساً ، ورئاسته ليست للاستعباد والتسخير ، وإنما هى رئاسة إشراف ورعاية ، أعطاها الله الرجل بحكم تكوينه الطبيعى ، وبحكم كده وعمله فى تحصيل الرزق الذى ينفقه على أسرته ، قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(١) . وقد أوصى الإسلام الرجل أن يكون مع زوجته حسن العشرة ، طيب الخلق ، كريم المعاملة ، فإن المرأة إنسان لها رأى وعقل وكيان ، وهى شريكة فى إدارة المنزل ، وتربية الأولاد ، وتدبير العيش ، والقرآن الكريم يرشد إلى حسن العشرة فى قوله : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾(٢)

وحسن العشرة يقتضى عدم إهانتها وإيذائها إذا بدا بعض هفواتها ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان قدوة مُثلى فى نبل المعاملة ، وكرم العشرة الزوجية ، وهو القائل : «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِى»(٣) . ويقول مرشداً الأزواج إلى أن حسن العشرة الزوجية من الإيمان : «أَكْمَلُ

---

(١) سورة النساء : ٣٤ .
(٢) سورة النساء : ١٩ .
(٣) رواه الترمذى من حديث عائشة وصححه .

الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ »[١] .

وآخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثٌ كان يتكلم بهن حتى خفى كلامه ، جعل يقول : « الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ لَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ ، اللهَ اللهَ فِى النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ فِى أَيْدِيكُمْ ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ »[٢] .

وإذا كان فى المرأة ضعف تصرف أو دمامة شكل فربما يجد فيها خلقاً حميدًا وسلوكاً عفيفاً ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لَا يَفْرَكْ - أى لا يبغض - مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِىَ مِنْهَا خُلُقًا آخَرَ »[٣] .

كما أن من حقها عليه أن يحافظ على سمعتها وكرامتها ، وأن يوفر لها أسباب العصمة والشرف .

وكثير من الناس يترك الحبل على الغارب لزوجته ، تخالط من تشاء ، وتخلو بمن تحب ، والخلوة بالأجنبى سواء كان صديقاً أو جارًا أو قريباً أو زميلا فى العمل - ربما تفضى إلى ما لا يحمد ، أو تسىء السمعة ، وتلوث الشرف ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا خلاَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ »[٤] ، « لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ لاَ تَحِلّ لَهُ فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ » .

كما أن عليه أن يرشدها إلى الخير ، ويعودها الصالح من الأعمال والأقوال . فهو مسئول عنها أمام الله يوم القيامة .

يقول الله عز وجل مبيناً مسئولية رد الأسرة عمن تحت يده من زوجة وأولاد : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[٥] .

---

(١) رواه الترمذى والنسائى واللفظ له والحاكم .
(٢) رواه النسائى وابن ماجه .
(٣) رواه أحمد ومسلم .
(٤) رواه أحمد .
(٥) سورة التحريم : ٦ .

والرجل عليه نفقة زوجته وكسوتها بالمعروف ، من غير تقتير ولاإسراف ، يقول تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)(١) ، ويقول : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)(٢) .

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل النفقة التى ينفقها الرجل على زوجته ، من غير إسراف وبذخ ، فيقول : «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فى سَبِيلِ اللهِ ، ودِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِى رَقَبَة ، ودِينَارٌ تَصَدَّقْتَ به عَلَى مِسْكِينٍ ، ودِينارٌ أَنْفَقْتَه على أَهْلِك ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِى أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ »(٣) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَى الرَّجُل ؟ قَالَ : «يُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمَ ، ويَكْسُوهَا إذا اكْتَسَى ، ولا يُقَبِّحُ الْوَجْهَ ، ولَا يَضْرِبُ إِلاَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّح ، ولا يَهْجُرُهَا إِلاَّ فِى الْمَبِيتِ »(٤) ، كما يجب عليه أن يعدل بينها وبين غيرها إن كان له زوجات ، والعدل يكون فى النفقة والمبيت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَومَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ »(٥) .

والإسلام كما أوصى الرجل بالمرأة فهو يوصى المرأة بالرجل ، والقرآن الكريم يذكر أن على المرأة واجبات ، كما أن لها حقوقاً فيقول : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)(٦) ، فيوجب عليها طاعته فيما لا معصية فيه ، وإحسان عشرته ، وإكرام معاملته ، وتجنب ما يكرهه ويثير غضبه .

ومن حق الزوج عليها ، أن تحافظ على بيته وما فيه وتتصرف فيما تحت

---

(١) سورة الأعراف : ٣١ .
(٢) سورة الإسراء : ٢٩ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه .
(٥) رواه أصحاب السنن وابن حبان .
(٦) سورة البقرة : ٢٢٨ .

يدها بالمعروف ، ولا تخرج إلا بإذنه ، وأن تحفظه فى عرضها إذا غاب .

والرسول صلى الله عليه وسلم يبين عظيم حق الزوج ، وجزاء طاعته ، فيقول : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ »(١) . ويروى أبوهريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا ، وَصَامَتْ شَهْرَها ، وحَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وأَطَاعَتْ زَوْجَهَا ، دَخَلَت جَنَّةَ رَبِّهَا »(٢) .

كما يجب على كل منهما إزاء الآخر حفظ الأسرار الزوجية ، وعدم إفشائها إلى قريب أو بعيد ، وما يجرى فى بيوت الزوجية يجب أن يكون بعيداً عن أسماع الآخرين ، وفى الحديث : « إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الأَمَانَةِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الرَّجُلُ يُفْضِى إلى امْرَأَتِهِ وتُفْضى إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّها »(٣) .

والمسلمون الأولون كانوا رجالا ونساء يعرفون حقوق الزوجية ، ويسيرون على آداب الإسلام فى تعاليمه وتوجيهاته ، وبذلك سعدت الأمة بأسر كريمة كان لها الفضل فى تخريج نشء صالح ، كان عماد الأمة فى شدتها ورخائها .

ولقد أوصت امرأة من السلف بنتاً لها عند التزوج فقالت لها : إنك خرجت من العش الذى فيه دَرَجْتِ ، فصرت إلى فراش لم تَعْرِفِيهِ ، وقرينٍ لم تَأْلَفيه ، فكونى له أَرْضاً يكن لك سماء ، وكونى له مِهاداً يكن لك عماداً ، وكونى له أَمَة يكن لك عبداً ، ولا تَلْحِق به فَيَقْلاكِ ، ولا تباعدى عنه فيَنْساك ، إن دنا منك فاقربى منه ، وإن نأى فابعدى عنه ، واحفظى أَنفَهُ وسمْعَه وعَيْنَه فلا يَشمَّنّ مِنْكِ إلا طِيباً ، ولا يسمع إلا حَسَناً ، ولا ينظر إلا جَمِيلاً .

تلك هى توجيهات الإسلام الكفيلة بخلق الأسرة الصالحة ، لتكون عماداً

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه . (٢) رواه ابن حبان .
(٣) رواه مسلم .

لمجتمع صالح ، والباحث فى علل المجتمع وأدوائه يجد من مظاهرها أسرًا بعيدة عن توجيه الإسلام وسننه .

وكم شقى أطفال من بنين وبنات وعاشوا عالة على المجتمع ، أو معاول هدم فى صرحه ، لأن الأبوين أو أحدهما انحرف عن الجادة ، ومال عن الحق ، وأحاطت به الأهواء فضل السبيل .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا »(١) .

(١) رواه الترمذى وابن حبان من حديث أبى هريرة ، وأبو داود من حديث قيس بن سعد ، وابن ماجه من حديث عائشة .

حق الجوار

الحمد لله رب العالمين ، دعا إلى حسن المعاملة ، وإلى التعاون على البِرِّ والتقوى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جمع على الخير قلوب المؤمنين ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، أعظم الناس خلقاً ، وأحسنهم جوارًا ، وأكرمهم عشرة ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين تأسوا بنبيهم ، فكانوا نماذج للمكارم ، ومثلا للوفاء (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . أما بعد :

فإن المسلمين فى نظر الإسلام بنيان واحد ، لَبناته أبناء هذه الأُمة ، وكل لَبنة فى هذا البنيان ما لم تكن قوية متماسكة ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، باللبنات الأُخرى ، فإنها ستعرض البناء للخطر ، وربما للانهيار ، ولبنات الإسلام حيث كانت فإنها كيان واحد تمده بالحياة روح واحدة هى روح الإيمان التى لا تعرف لوناً أو أرضاً أو لساناً ، ولقد كانت نظرة الإسلام العملية فى هذا الجانب نظرة واقعية ، فعالج فى أبناء هذه الأُمة أسباب الضعف والتفكك ، ودعاها إلى الأخذ بوسائل القوة ، وجاءت تشريعاته كلها من عقائد ، وعبادات ، وأخلاقيات ، ومعاملات تؤكد هذا المعنى فى الأمة وتجمعها على كلمة سواء . وكان أهم ما عنى به : حق الجوار ورعاية حرماته ، والتعاون معه ، حرصاً منه على سلامة هذا البنيان . وحماية له من كل ما يوهن من قوته . وليمضى المجتمع إلى التقدم متماسكاً متساندًا . والقرآن الكريم يعلن أن أمة الإسلام أمة واحدة ، والمؤمنون بهذا الدين إخوة ، دون نظر إلى لسان أو لون أو أرض ، بل إنه لينظر إلى الإنسانية عامة .

قال تعالى : (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ

وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً واتَّقُوا اللهُ الَّذِى تَساءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)[١] . والقرآن الكريم يفرض على أبنائه الإحسان إلى الجار قريباً كان أو بعيداً ، وسواء فى ذلك من يدين بهذا الدين ، ومن لا يدين به ، كما دَرَجَه ونظمه فى سلك واحد مع عبادة الله وبر الوالدين والأقربين قال تعالى : (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)[٢] . فمن حَقِّ الجار على جاره أن يكون له فى الشدائد عوناً ، وفى الرخاء أخاً يأسى لما يؤذيه . ويفرح لما يسره ويرضيه . ينفس كرباته . ويقضى حاجاته ، ويسانده إذا استعان به ، ويأخذ بيده إذا أظلمت فى وجهه الحياة ، ويرشده إذا ضل أو أخطأ الطريق ، ويهنئه إذا أصابه خير ، ويبصره إذا ظلم ، ويدفع عنه الأذى . عن معاوية بن حيدة قال : قلت يا رسول الله ما حق الجار علىّ ؟ قال : «إنْ مرِضَ عُدْتَهُ ، وإنْ مَاتَ شَيَّعْتَهُ ، وإذا اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ ، وإذَا افتَقَرَ عُدْتَ عَلَيْهِ ، وإذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ ، وإذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ ، ولا تَسْتَطِل عَلَيْهِ بِالْبُنْيَانِ ، فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحِ إِلاَّ بإِذْنِهِ ، ولا تُؤْذِهِ بقتار ريح قدْرِكَ إِلاَّ أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا ، وإن اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ ، فإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا ، وَلاَ يَخْرُجُ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ »[٣] ، وقد بالغ الإسلام فى تحذير أولئك الذين لا يرعون حق الجار حين أعلن أن المسلم الذى لا يهتم بشأن جاره ، ولا يألم لألمه ، ولا يحس بإحساسه ، قد جافى خلق أهل الإيمان . قال أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة النساء : ١ .

(٢) سورة النساء : ٣٦ .

(٣) رواه الطبرانى .

« ما آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وجَارُهُ جَائعٌ إلى جَنْبِه وهُوَ يَعْلَمُ »[١]، وكم من جار يأتى يوم القيامة وهو متعلّق بجاره ، يقول ، رب سل هذا لمَ أغلق عنى بابه ، ومنعنى فضله؟! لقد كان حقًّا عليه أن يشبع جوعته ، ويستر بالثياب عورته ، ويسد خلته ؛ فإن جحد هذا الحق كان أهلاً للحرمان من فضل الله ورحمته ؛ جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اكسنى ، فقال : «أما لك جارله فضل ثوبين؟ »قال : بلى غير واحد! قال : « فلايجمع الله بينك وبينه فى الجنة »[٢]. والإحسان إلى الجار برهان قوى على الإيمان بالله عز وجل . ودليل عملى على صدقه . والجار المؤمن يحب لجاره ما يحب لنفسه ، ويكره له ما لا يحبه لشخصه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « اتق المحارم تكن أعبد الناس . وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس . وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً . وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً . ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب »[٣]. وإذا كان المفروض فى الجار أن يكون باراًّ بجيرانه ، فما أشد ما توعد به النبىّ صلى الله عليه وسلم أولئك الذين يسيئون إلى جيرانهم حين قال : « والله لا يُؤْمِنُ ، والله لاَيُؤْمِنُ ، واللهِ لاَ يُؤْمِنُ . قالوا من يا رسول الله خَابَ وخَسِر ؟ قال من لَا يَأْمَنُ جَارُه بوائقه »[٤] نعم ، فالمؤمنون فى أخلاقهم كرماء ، وفى معاملتهم سمحاء ، ثم يقول صلوات الله عليه : « من كَانَ يُؤْمن بالله واليوم الآخِرِ فلْيُكرمْ جَارَهُ » ، وفى رواية فلْيُحْسِنْ إلى جَارِهِ »[٥]. وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره . فعن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه . وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره »[٦]

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .
(٢) رواه الطبرانى والبزار .
(٣) رواه الترمذى .
(٤) رواه البخارى .
(٥) رواه مسلم .
(٦) رواه الترمذى .

والمسلم الذى ينتسب إلى الإسلام ويؤدى واجباته ما لم يثمر فى سلوكه الخلق الكريم ، والمعاملةُ الطيبة للمسلمين – فلا خير فيه ، ولا أثر لعبادته... روى أحمد فى مسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم قيل له : يا رسول الله ، إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصدقها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها ، قال : هى فى النار ؛ قيل : يا رسول الله ، فإنَّ فُلانَة تذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأَقِط ، ولا تؤذى جيرانها ، قال : هى فى الجنة . ولقد كان السلف الصالح من هذه الأُمة مثلا عالياً فى حسن الجوار ، ولو كان لمخالفيهم فى الدين ما كانوا معنا على العهد ، متأدبين فى ذلك بأدبِ القرآن حين يقول : (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[1] . وفى كنف هذا التوجيه القرآنى عاش أهل الكتاب فى جوار المسلمين ينعمون بالأمن والطمأنينة على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وعلى معتقداتهم ، وحين وجدوا من رحابة الخلق ، وسماحة النفوس ، وكرم المعاملة ، ما أخذ عليهم كل طريق لمعاداة هؤلاء المسلمين ، أسرعوا يعتنقون الإسلام عن حب ويقين . عن مجاهد أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ؛ ذبحت له شاة فى أهله ، فلما جاء قال أهديتم لجارنا اليهودى أهديتم لجارنا اليهودى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2] وليس الجار فقط بالقريب الذى يلاصقك فى المنزل ، أو يكون إلى جانبك فى العمل أو فى السفر فقط . فقد أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ،

---

(١) سورة الممتحنة : ٨ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى كما روى أيضاً عن ابن عمر .

إنى نزلت فى محلة بنى فلان ، وإن أشدهم إلىَّ أذى أقربهم لى جوارًا ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليًّا ، يأتون المسجد فيقومون على بابه فيصيحون ألا إن أربعين دارًا جار ، ولا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ خَافَ جَارُهُ بوائقه[1] .

ولقد بلغ من أخلاق المسلمين الأُول ، فى معاملتهم لجيرانهم ، أنهم كانوا يرون فى الجار العوض عن كل ما يفقدون ، والساعد الذى يواجهون به الشدة ، والقوة التى يدفعون بها الشر ، والعون الذى يدرءون به غائلة الفقر ، ومن ثم لم يكونوا يؤثرون بالجوار الصالح مالاً ولا عرضاً من الدنيا ، ومما يروى فى ذلك أن جار سعيد بن العاص ساوم على مائة ألف درهم فى داره ، ثم قال للمشترى : هذا ثمن الدار ، وبكم تشترى جوار سعيد . . فلما علم سعيد بَعث إليه بالثمن واستبقاه فى داره .

إن الجوار الصالح له مكانته عند العقلاء فهم لا يعدلون به شيئاً : ففيه أنس وحشتهم ، وراحة بالهم ، واستقرار حياتهم ، وبه الأمن على كل مرتخص وغال عندهم ، إنه غناهم حين يفتقرون ، وغياثهم فى الخطوب . وعدتهم للنوازل والكروب .

هذه هى الأخلاق الإسلامية التى ربى عليها الإسلام أبناءه ، فكانوا كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً ، فيحمل غنيهم فقيرهم ، ويعين قويهم ضعيفهم ، لا شحناء ، ولا بغضاء ، ولا ضغائن ، ولا أحقاد ، ربط الود بين مشاعرهم ، وجمع الايمان أفئدتهم ، فهم أسرة واحدة ، وإن تفرقت الأنساب ، واختلفت الأجناس ؛ إنهم الواقع المتجسد للحديث الشريف الذى يرويه النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

(١) رواه الطبرانى .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ».

فما أجمل أن يتخلق المسلمون بهذا الخلق ، ويأخذوا أنفسهم بهذا المبدأ ، ويستنوا بسنة أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم فيكونوا مع جيرانهم الأخيار الأطهار ، الذين يرجى نفعهم ، ويؤمن شرهم ، ويطمئنون فى الشدائد إليهم.

إن المسلمين بين يدى تعاليم السماء ، وأدب هذا الدين الرفيع الذى أخذ به أبناءه فى معاملة الجار ، عليهم أن يذكروا أن سعادتهم رهن بمقدار استمساكهم بهذه التعاليم ، وأن سكينتهم وأمنهم فى الاعتصام بها ، والاستمساك بحبلها ، وأن واجبهم أن يأخذوا أنفسهم بهذه التعاليم خصوصاً ما كان منها متعلقاً بالجار. فالفرد بجانبه آخر ، والأمة تجاورها أمة أخرى ، حق على كل أن يمد يده للمظلوم حتى ينتصر ، وأن يعين المغلوب حتى يأخذ بحقه ، وأن يكافح معه حتى يقيل عثرته ، وينقذه من شدته ؛ قال تعالى : (وتَعَاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوَى ولاَ تَعَاوَنُوا عَلَىَ الإِثْمِ وَالْعدْوانِ) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ».

إن الإسلام وهو يدعو إلى ذلك إنما يربط بين أبناء هذه الأمة حسًّا ومعنى ، ويجمعها كلها فى إطاره الواسع المترامى الأطراف ، مستوحياً فى ذلك كرامة الإنسان ، وحق آدميته الذى يجب ألَّا يهدر ، وإن تعددت الأوطان ، وتنوعت الأديان ، استمساكاً بهدى القرآن ، وهو يقول : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[1].

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

إنهم يومئذ يكونون بحق أتباع محمد صلوات الله وتسليماته عليه ، كما يكونون الأمة المثالية التى أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس .

فاتقوا الله عباد الله وقدموا لأنفسكم ، واعملوا صالحاً يكن لكم (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آذَى جَارَهُ فَقَدْ آذَانِى ، ومَنْ آذَانى فَقَدْ آذَى الله ، ومَنْ حَارَبَ جَارَهُ فَقَدْ حَارَبَنِى ، ومَنْ حَارَبَنِى فَقَدْ حَارَبَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ »[1] . وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهم بِبَعْضٍ لفسَدَتِ الأَرض)[2] .

---

(١) رواه أبو الشيخ ابن حبان .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

دور التعاون

فى دعم المجتمع الإسلامى

الحمد لله ، أمرنا بالتمسك بمعالى الأُمور ، وحثنا على أن نتعاون ونتراحم فقال : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جمع القلوب بفضله ، وأعطى كل شىء خلقه ، وكل كائن حقه ، ثم هدى ، وعلم عباده أنهم مستخلفون فيما يملكون ، وأنهم منصورون حين يتعاونون ويحسنون : (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله عاش لأمته لا لذاته ، فلم تشغله فى دنياه رغبة ، ولم توقفه عن نشر دعوته رهبة ، بل أخلص لله العمل ، وأقام أمة التوحيد والعدل والرشاد . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا الحق ، وساروا على هداه ، فأعزهم الله ، ومكن لهم فى الأرض ، وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، ورضى عنهم وأرضاهم وكتب لهم السعادة والتوفيق .

أما بعد ؛ فيا عباد الله . . التعاون غريزة فى أنواع مختلفة من عالم الأحياء ، وهو سبيل بقائها فى هذه الحياة ، فأسراب النمل تتعاون فيما بينها فى دأب وصبر على أعمالها المختلفة ، ومحاولاتها المتعددة لتحافظ على حياتها ، وتُبقى على ذاتها ، فهى تدخر لنفسها القوت ، وتحافظ عليه لتنتفع به فى الزمن الذى لا تستطيع فيه أن تخرج من مساكنها ، وإذا ما تعرضت لخطر تجمعت وتعاونت على دفعه ، وتعد هذا التعاون الوسيلة الوحيدة لدرء هذه الأخطار ، والقرآن الكريم يقص علينا موقفاً من مواقف هذا النوع الضعيف

من المخلوقات وهو يكافح دفاعاً عن بقائه متآلفاً متعاوناً ، فحينما مرّ سليمان عليه السلام بواد فيه نمل كثير ، وهو مع جيشه الكبير لا يشعر بأن على الأرض نمـلا يسعى ، أحست نملة واحدة بدنوّ الخطر ، فصاحت بلغتها فى بنى جنسها ليتنبهوا إلى مصدر الخطر ويتوقوه ، قال تعالى : (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)(١). وكذلك جماعات النحل تتعاون فى دقة وتنسيق على القيام بواجباتها وتنظيم بيوتهـا وتعمير خلاياها ، حتى تتمكن من أداء وظيفتها فى إنتاج الشراب الذى وصفه الله بأنه فيه شفاء للناس ، قال تعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ، وَمِنَ الشَّجَرِ ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(٢). والطيور والحيوانات الأخرى نراها جماعات جماعات ، فإذا عرض لها خطر تكتلت وواجهته مجتمعة ، لإدراكها بالغريزة أنها إذا انقسمت إلى أفراد — هانت وذلت وأصابها الهلاك والدمار . . .

والإنسان هو سيد هذه الأحياء ، فيجب أن يكون تعاونه أوثق وأعمق ، لأنه أفضل من يدرك أن الجماعة خير من الفرقة ، وأن التعاون أجدى من النزعات الفردية والانعزالية الناشئة عن الأثرة وحب الذات ، ومن طبيعة هذه الحياة أن يتفاوت الناس فى المواهب والملكات ، والجهود والطاقات ، فمنهم

(١) سورة النمل : ١٨ و ١٩ . (٢) سورة النحل : ٦٨ و ٦٩ .

قوى وضعيف ، وصحيح وسقيم ، ومستطيع وعاجز ، إلا أن هذه الفروق إذا تركت وشأنها فاتسعت وانفسحت ، ولم تحاول الأيدى المخلصة أن تخفف من حدتها ، أصبحت عوامل للهدم ومعاول للتحطيم ، فالواجب هو التقريب بين هؤلاء المتفاوتين عن طريق التفاهم والتراحم ، وبأسلوب التكافل والتعاون ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يعيش منفردًا ، ومهما أوتى من قوة وقدرة ، فسيحتاج فى أحيان كثيرة إلى غيره يعاونه فى حياته ، ويواسيه فى شدته ، ويؤنسه فى وحشته ، ويشاركه سعادة الحياة ، ليكون لها طعم ومذاق ، وقد عبر الشاعر العربى من قديم عن هذا المعنى بقوله :

ولو أنى حُبِيتُ الْخُلْدَ فَرْدًا ... لما أَحْبَبْتُ بالْخُلْدِ انْفِرَادا

فَلاَ هطلت علىّ ولا بأَرضى ... سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ الْبِلاَدا

والمجتمع العربى قبل الإسلام تحكمت فيه العصبية الجاهلية ، وقام التعصُّب للقبيلة مقام التعاون العام بين القبائل جميعها ، فكان الواحد منهم يناصر صاحبه ولو كان ظالماً ، ويساعده ولو فيما يخالف الحق والعدالة ، وكانت العلاقات الاجتماعية بينهم تقوم على التفاخر والتباهى بالحسب والنسب ، رغبةً فى التعالى على الآخرين .

ولما جاء الإسلام لم يرض عن هذا الخلق ، بل عمل على ردّ النفس الإنسانية إلى فطرتها الخيّرة ، من التعاون والمحبة والتناصر ، ونهى عن التفاخر بالأحساب والأنساب ، وسوى بين المسلمين وجعلهم إخوة متحابين ، وأصبح المسلمون أُمة متعاونة على الخير ، لا يفرق بين أفرادها لون ولا جنس ، ولا وطن ولا مال ، وجاء التوجيه الإلٰهى يدفع المسلمين إلى هذا السلوك الإنسانى الرفيع ، قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[١] . لقد أنكر الإسلام النزعات الانتهازية ، وقاوم السلبية ، ونبذ الأثرة والأنانية ، والتهافت المسعور على امتصاص حقوق العاملين الضعفاء ، وبين أن الناس جميعاً فى حق العمل وحق الحياة سواء ، فيقول الله تعالى : (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً)[٢] .

وهذه الآية تؤكد أن جميع ما سخر الله فى الكون لخدمة الإنسان ، الذى يعمل بكل طاقته وجهده وملكاته ، فى خدمة المجتمع الذى يعيش فيه ، ولا يكون الخير والمال وقفاً على طبقة معينة ، أو نهباً للمستغلين والطامعين .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان معه فَضْل ظهر فلْيَعدْ بهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ ، ومن كان معه فضلٌ مِنْ زَاد فلْيَعُد به على مَنْ لا زاد له ، قال أبو سعيد : فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حقّ لأحد منَّا فى فَضْل »[٣] . ومن أجل ذلك يُعرِّف الإسلام أبناءه أن واجب الفرد منهم أن يعمل من أجل المجموع وألا يعيش لذاته ، وحدها ، قال تعالى : (آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)[٤] . وفى الأثر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لقد رأيت رجلا يتقلَّبُ فى الجَنَّةِ فى شَجَرَة قطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيق ، كَانَتْ تُؤْذِى الْمُسْلِمِين » . وإذا كان الأمر كذلك فأية منزلة عالية تلك التى ينالها من يرفع عبء الظلم ، ويرسى دعائم العدل ، ويقيم موازين القسط ، ويسعى فى سبيل مجد الأمة وعزها ، ويعمل بكل

(١) سورة التوبة : ٧١ .
(٢) سورة البقرة : ٢٩ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) سورة الحديد : ٧ .

طاقته لأمنها وسلامتها ، ويبذل الجهد لكفايتها وسد حاجتها ، وهكذا يضع الإسلام العدل الاجتماعى قاعدة ومنطلقاً إلى الإخاء الإنسانى ، والتعاون المثمر البناء ، من أجل الحرية والمساواة ، ولتحقيق السيادة والعزة ، ولكفالة مستوى من المعيشة أكرم وأرفع لكل فرد من أفراد المجتمع ، ويثنى رسول الله على جماعة من المسلمين كان التعاون على الخير ديدنهم ورائدهم ، فقد روى عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الأشعريين إذَا أرملوا فى الغزو أو قل طَعَامُ عِيالِهِمْ بالمدِينة ، جمعوا ما كان عِنْدَهُمْ فى ثَوْب واحِد ثُمَّ اقْتَسَمُوه بينهم فى إنَاءٍ واحِدٍ بالسَّوِية ، فهم منِّى وأنَا مِنهُمْ »[1] .

يا عباد الله : لقد أسس رسول الله مجتمع المدينة – وهو النموذج الأول للمجتمع الإسلامى – على هذا الخلق الرفيع ، فقد ترك المهاجرون بلدهم مكة ، وتركوا فيها أموالهم وكل ما يملكون ، وانتقلوا إلى المدينة ، وليس معهم شىء ، فى حين كان الأنصار – وهم أهل المدينة – يملكون ويقيمون فى بيوتهم ، ويعملون فى أرضهم ، فأقام الرسول التوازن بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، عن طريق الأخوة التى يقررها قول الله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2] . وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وصار كل أخوين من هؤلاء يتعاونان ، ويتناصران ؛ ويتشاركان فى السراء والضراء ، وكان الأنصارى يذهب إلى أخيه المهاجرى ويعرض عليه أن يقاسمه كل ما يملك ، ولم يستغل المهاجرون هذا السخاء ، بل إن الكثير منهم اتجه إلى السوق ليأكل من كد يمينه ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الصورة الرائعة للإيثار ، فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ

(١) متفق عليه .
(٢) سورة الحجرات : ١٠ .

عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[١].

فالتعاون والإيثار دعامة من دعائم عقيدتنا ، وأساس من أسس ديننا ، ومفروض علينا بحكم إيماننا أن نكون متخلقين به ، وأن نتخذه سلوكاً فى حياتنا ، يقول الله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[٢] ؛ أى تعاونوا على التوسع فى فعل الخير ، وعلى تجنب كل ما يضركم فى الدين والدنيا ، ولا تعاونوا على سيئة من السيئات ، ولا على لون من ألوان الجور والظلم . . وهذا النص القرآنى شعار كريم رفيع للمجتمع التعاونى الفاضل ، الموصول الأسباب بأعظم معين ، وأكرم مستعان . . وقد زكى النبى عليه الصلاة والسلام منهاج التعاون بين العباد ، وتبادل المنافع بين الناس فقال : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُه ولا يُسْلمه ، ومَنْ كَان فى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِى حَاجَتِهِ ، ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٣] ، ومعنى هذا أن الإنسان إذا شارك بمجهوده فى تحقيق التعاون وتهيئة فرص الانتفاع للمحتاج إلى المساعدة ، فقد وعده ربه بأن يتكفل له بحاجته ومطالبه ، وهو تحريض رائع على التعاون ، وتكريم للذين يعاونون الناس ، وقد أخبرنا النبى أن من شأن أمّته أن يكونوا على أكمل صورة من صور التعاون ، وهى صورة الاتحاد القوى ، والتآلف الوثيق ، والتكتل الذى ينتظم الأفراد فى المظهر والمخبر ، فكأنهم شىء واحد ، فيقول : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه »[٤]. ويقول : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ

---

(١) سورة الحشر : ٩ .
(٢) سورة المائدة : ٢ .
(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود .
(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتكى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سائر الْجَسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ »[1] ، ولأَنَّ الإسلام يريد أن يوسع من قاعدة التعاون بين أبنائه يصف الشخص المعاون لغيره والنافع له بأنه أفضل العباد ، فعن عبد الله بن عمر أن رجلا جاء إلى رسول الله فقال : يا رسول الله أىّ النَّاسِ أحبّ إلى الله ؟ قال : « أحب الناس إلى الله أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وأحبُّ الأعمال إلَى الله عز وجل سُرُورٌ تُدْخِله على مُسْلم ، تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أو تَقْضِى عَنْهُ دَيناً ، أو تَطْرُدُ عَنْه جُوعاً ، ولأَن أمشىَ مع أخ فى حَاجَةٍ أَحَبُّ إلىّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِى هَذا المَسْجِدِ - يعنى مسجد المدينة - شهْرًا ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ولو شاء أن يُمْضِيَه أَمْضَاه ، مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رضًا ، ومن مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِى حَاجَةٍ حَتَّى يَقْضِيَها لَهُ ثبّتَ الله قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزِلُّ الْأَقْدَام »[2]. وهذا هو ذو القرنين يحدثنا عنه القرآن الكريم بأَن الله مكَّن له فى الأَرض ، وآتاه من كل شىء سبباً ، ونراه برغم قوته لم يستغن عن التعاون ، فحينما سأله القوم أَن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا هتف فيهم فقال : (فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدماً)[3] .

أيها المسلمون : إن مجتمعنا اليوم يناديا بأَن نتخذ من التعاون البنَّاء شعارًا لنا ، حتى ترفرف على هذا المجتمع أعلام الحرية والقوة والرخاء والعدالة ، وذلك يقتضينا عملا متواصلا وجهدًا مشتركاً وفكرًا متبادلا وتضامناً حقيقيًّا مثمرًا ، فى كل المجالات وفى جميع الاتجاهات ، وإن لقاء الأُمة العربية المتحررة على طريق التعاون والعدل الاجتماعى لتطهير أرضها من جيوب السيطرة

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه الأصبهانى .
(٣) سورة الكهف : ٩٥ .

الأجنبية هو وحده الكفيل بتحرير أرض العرب من الاستعمار والعملاء . . .

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1] .

---

(١) سورة التوبة : ١٠٥ .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الحمد لله دعانا إلى طاعته ، وحثنا على التحلى بمكارم الأخلاق ، وأمرنا بأن نتواصى بالتمسك بالفضائل ، وتجنب الرذائل : (وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[1] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جعل هذه الأُمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس . وأهَّلها لهذه الخيرية تحمُّلها تبعات الدعوة إلى الله ، والعمل على أن تسود المجتمعات علاقات الخير والمعروف ، وأن تنحى عنها عوامل الشر والفساد . . .

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله ، بلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأحبابه وأتباعه الذين حُمِّلوا أمانة الدعوة فحملوها ، والتزموا بالعمل على إصلاح مجتمعاتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فكتب الله لهم عز الدنيا وسعادة العقبى ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

أما بعد . . . فيأيها المسلمون :

ميز الله الإنسان بطبيعته الخاصة التى ترتفع فوق طبائع الموجودات الأُخرى ، فاختص بأنه صاحب الإرادة التى يعقل ما يشاء ، ويترك ما

---

(١) سورة العصر : ١ – ٣ .

يريد ، وصاحب العقل الذى يميز به بين ما ينفعه وما يضره ، فيسارع إلى فعل ما ينفع ، وتجنب ما يضر . ولذلك أسند الله إليه عمارة الكون ، واحتفظ له بحق السيادة على ما فيه ، قال تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[1] ، ولذلك كانت مهمة الإنسان فى حياته أن يتعرف طبيعته هذه المتميزة ، وأن يعلن عن هذا التمييز فى تصرفاته كإنسان ، وكانت مهمة الرسالة الإسلامية أن تعين الإنسان على التسامى ، وأن توقظ فيه معنى البشرية وخصائصها ، ثم تدفعه إلى الطريق المستقيم ، لتحقيق الخصائص البشرية ، والتعبير عنها فى السلوك والمعاملة .

والإنسان حينما يؤدى دوره هكذا فى الحياة ، وحينما يتصرف كإنسان كرمه ربه باستخلافه فى الأرض يكون عضواً صالحاً فى مجتمعه ، والمجتمعات تسعد بأبنائها الصالحين ، الذين يتحلون بمكارم الأخلاق ، ويلتزمون السير فى طريق الخير والرشد والكرامة .

إلا أنه يوجد فى المجتمعات نوع من الناس ، لا يدرك معنى تكريمه ، ولا يلتزم بسلوك الراشدين فيقع فى الزلل ، إما جهلا بقبحه أو بسوء نتائجه ، وإما استهتارا وسوء أدب ، ولو ترك المقصر بغير نصح وإرشاد ، لأساء إلى نفسه وإلى المجتمع ، أما إذا وجد الناصح الأمين ، فعلم الجاهل ، وأرشد الضال ، كان من وراء ذلك سلامتهما وسلامة الأمة كلها ، وقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما للنصيحة من أثر فى تقدير الإسلام ، حتى جعلها هى الدين فقال : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » .

أيها المسلمون :

من أجل ذلك أمرنا الله تعالى بأن ننهض بعبء الدعوة إلى الخير ، وأن

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

نـأمر بالمعروف وأن ننهى عن المنكر ، فقال : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1]. وهذا تكليف ليس بالهين ولا باليسير ؛ لأنه يصادم شهوات كثير من الناس ورغباتهم . وفيهم الجبار المتكبر ، ومنهم المفسد المغرق فى الفساد ، وفيهم الهابط. الذى يكره الصعود ، ولكنه مع ذلك تكليف محبب إلى النفوس المؤمنة ، التى تنشد إصلاح المجتمع ، وربطه بالقوة الخالقة الخالدة ، ولا يبالون بما يصيبهم من أذى أو مكروه ، وهم بذلك يستأهلون أن يقول فيهم القرآن الكريم : (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، هم المفلحون فى دعوتهم لأنها دعوة الخير ، المفلحون فى حياتهم لأنهم ينفقونها فيما يرضى الله ، وهم المفلحون فى أخراهم بما قدموا بين أيديهم من حسنات .

والله تعالى يسجل لهذه الأمة الخيرية ، فهى خير أمة أخرجت للناس ، ولم تستحقها محاباة من الله لها . ولم يجعل لها هذه الخيرية جزافاً ، كلا ، إن العمل الإيجابى لإصلاح الحياة وترقيتها ، هو الجزاء الحق على العمل الحق فقال : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[2].

والمؤمنون متكافلون فى هذه الدعوة ، وكل واحد عليه أن يدعو ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكما يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، امتثالا لأمر الله ، فإنهم مأمورون بالنهوض بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهم أولياء بعض ، إنهم كالأسرة الواحدة ، إذا فسد فرد فيها أساء إليها كلها ، وتقويم هذا الفاسد إصلاح للأسرة جميعها ، وفى هذا يقول الله تعالى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ . (٢) سورة آل عمران : ١١٠ .

وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[١].

إن الانحلال الفردى أو الاجتماعى يجب أن يتصدى له المخلصون ، وأن يقفوا فى وجهه ، فلو ترك لعمَّ وانتشر وقضى على عناصر الحياة ، وعرض الأُمة للدمار والفناء ، ومن هنا كان أثر المنكرات غير خاص بمرتكبيها ، وكان الساكتون عليها عاملين على إذاعتها ، وبهذا القدر من الموقف السلبى يكونون أهلاً لحلول العقاب بهم ، ولعل أول ما يدل على هذا فى تقرير السنن الاجتماعية قوله تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[٢] .

ولقد لعن الله بنى إسرائيل بسبب عصيانهم وعدوانهم وبصفة أخرى أشنع من العصيان والعدوان ، لقد كانوا يرون الشر فى مجتمعاتهم ويرضون به ، ولا يحاولون العمل على تغييره ، وكانوا يرون أمامهم المنكرات متفشية فيهم ، فلا يتنبه واحد منهم إلى محاربتها ، والجهر بأنها فساد يجب الإقلاع عنه وتنقية المجتمع من شروره . وقد حكى القرآن الكريم سلوكهم هذا وما ترتب عليه من عقاب شديد ، ووعيد أليم ، قال تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ – ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ، تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِىِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[٣].

---

(١) سورة التوبة : ٧١ .　　(٢) سورة الأنفال : ٢٥ .

(٣) سورة المائدة : الآيات ٧٨ و ٨٠ و ٨١ .

وقد بين ظروف ماحدث لبنى إسرائيل حديث رسول الله ، فعن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقصُ عَلَى بنِى إسرائيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرجلَ فيقولَ : يا هذا اتَّق الله ودَعْ ما تصنعُ فإنَّه لا يحلُّ لكَ ، ثم يَلْقَاهُ من الغَد فلا يمنعُهُ ذلِك أَنْ يَكون أَكِيلَه وشَرِيبَهُ وجَلِيسَه ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قُلُوبَ بعْضِهم بِبَعْض ، ثم قال : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ . .) الآيات ، ثم قال : كلا . . والله لتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوف ، ولَتَنْهَوُنَّ عن الْمنكر ، ولتأْخُذُنَّ عَلَى يدِ الظَّالِم ، ولتأْطُرُنَّهُ على الحق أَطْرًا ، أَو تَقْصِرُونَه على الحقِّ قَصْرًا »[1] .

وما جرى لبنى إسرائيل من سوء العاقبة ، يجرى لمن صنع صنيعهم ، واستحل المنكر ، وسكت الناس عن ردْعه . ولهذا نجد رسولنا الكريم يحذرنا من الوقوع فى هذه المعصية ، فعن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «والَّذِى نَفْسِى بيده لتأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن الْمُنْكر أَوْ لَيُوشكَنَّ الله أَنْ يبْعَثَ علَيْكُمْ عِقَاباً من عِنْدِه ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّه فلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ »[2] .

وهناك بعض الناس يتركون تحذير الناس من عاقبة ما يصنعون من رذائل خشيةً منهم مع أن الله أحق أن يخشى وأجدر بأَن يخاف ؛ وقد ندد الرسول بهذا الصنف الضعيف من الناس فقال : «لاَ يَحْقِرنَّ أَحَدُكم نَفْسه ، قالوا يا رسول الله : كيف يحقر أَحَدُنَا نَفْسَه ؟ قال : يرى أَن لله عليه مقالا ثم ، لا يَقُولُ فيه ، فيقول الله لَهُ يَوْمَ الْقِيَامة : ما منعك أَنْ تقُول فى كذا : كذا وكذا ؟ فيقول : خشْيَةُ النَّاس ، فيقول الله تعالى : «فإيَّاى كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى » .

أَيها المسلمون : إن المجتمعات الناهضة يتكون فيها رأى عام يكشف عن الفساد ، ويشهِّر بصاحبه حتى يرعوى ويصلح سلوكه ، والمطلوب من كل واحد

---

(١) رواه أبو داود . (٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

أن يكشف عن الانحرافات فى مجتمعه ، وأن ينبه إلى خطرها قبل أن يستفحل أمرها ، ولا يقبل من واحد يفعل الإثم ويمارس الشرور أن يدعى أن له الحرية فى فعل ما يفعل ، وترك ما يريد ؛ لأنه عضو فى جسم المجتمع ، وإذا فسد العضو أفسد ما حوله . . والرسول الكريم يدرك هذه الغفلة التى ترين على قلوب الناس فيحذرهم منها ، ويصورها لهم فى صور شتى ، من أعجبها وأبلغها هذه الصورة التى يرسمها فى حديثه الشريف ، صورة السفينة التى تمخر عباب الماء ، وفيها ركاب كثيرون أراد بعضهم أن يخرق فيها خرقاً ، فإذا ترك وشأنه غرقت السفينة وغرقوا جميعاً ، وإن أخذوا على يديه نجا ونجوا جميعاً . يقول صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ القَائِمِ فِى حُدُودِ الله والواقعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَة ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وبَعْضُهُم أَسْفَلَهَا ، فكَانَ الَّذِين فى أَسْفَلِهَا إذا اسْتَقَوا من الماء مرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِى نَصِيبِنَا خَرْقاً ، ولَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ تَرَكُوهم ومَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ، وإنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِم نَجَوْا ، ونَجَوْا جَمِيعًا » (١).

بهذا يتحقق الترابط فى المجتمع ، ترابط الحب والتعاون ، وترابط رعاية المصلحة العامة ، حيث يحيا الناس فى ظلالها متآخين متساوين ، عن طهر ونقاء ، وود وولاء . . .

وعملية تغيير المنكر مراتب . . المرتبة الأولى هى تغيير المنكر باليد ، وهى وظيفة مَن له الولاية ، من حاكم فى رعيته ، ورب أسرة مع أولاده ، وكذلك المربون والرؤساء الذين ملكهم القانون شيئاً من صور التغيير العملى . فكل واحد مسئول عما استرعاه ، « وكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » . المرتبة الثانية من مراتب التغيير مرتبة النصح والإرشاد ، مرتبة التغيير بالقول لمن

(١) رواه البخارى والترمذى .

يقدرعليه ، ويكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ : إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ : فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[1] . أما المرتبة الثالثة فهى الإنكار بالقلب لمن يعجز عن التغيير بالفعل وبالقول ، وليس معنى ذلك أن يقف أمام المنكرات موقفاً سلبيًّا يغمض عينيه ، ويسُدُّ سمْعهُ ، بل معناه أن يقطع صِلاته بهذا الذى يرتكب المنكر حتى يحس بعزلته ، وأن المجتمع قد لفظه . هذه المراتب الثلاث يوضحها قول رسول الله : «مَنْ رأى منْكُمْ مُنْكرًا فَلْيُغَيِّرهُ بيده ، فَإِنْ لمْ يسْتَطعْ فَبلسانه ، فَإِنْ لَمْ يسْتَطعْ فَبقَلْبه وذَلكَ أَضعفُ الإيمانِ »[2] .

والقرآن الكريم يعْرض أمامنا صورًا من صور الأَمر بالمعروف ، وينبه إلى أن الكلمة الطيبة تصعد إلى الله فيتقبلها بقبول حسن ، ويجزل لصاحبها أحسن الجزاء : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[3] . ومن نماذج الكلمة الطيبة ما يدل عليه قوله تعالى : (لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عظِيماً)[4] .

وما أجمل هدى القرآن الكريم فى قوله : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقبةُ لِلتَّقْوَى)[5] .

فاتقوا الله عباد الله ، وتخلقوا بأَخلاق الإسلام ، ومروا بالمعروف ، وانهوا

---

(١) سورة فصلت : ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) سورة فاطر : ١٠ .
(٤) سورة النساء : ١١٤ .
(٥) سورة طه : ١٢٣ .

عن المنكر ، حتى يظل مجتمعنا الإسلامى مجتمعاً طاهرًا نظيفاً ، فيحيا قويًّا عزيزًا : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[1].

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ولجميع المسلمين .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

العمل والاحتراف

الحمد لله ، خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ادخر لعباده أجزل الثواب ، لقاء ما قدموا من عمل صالح ، فنعم أجر العاملين ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، إمام المتقين ، وسيد المجاهدين ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى يوم الدين .

أما بعد : فيقول الله سبحانه فى كتابه الكريم : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ، وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (١) ، صدق الله العظيم .

أيها المسلمون :

هذه آيات كريمة يمتن فيها الحق سبحانه على عباده ، بما صنع بالأرض البور ، حين أحياها ، وأصلحها ، وأخرج منها المحاصيل الوفيرة ، وجعل فيها البساتين والنخيل والأعناب ، وفجر فيها عيون المياه . وهى صورة تتكرر فى حياة البلاد كل يوم ، ما دامت معركة الإنسان ضد الفقر ، وضد القحط قائمة مستمرة .

غير أن الله جلت قدرته ، وهو الذى وهب لعباده كل هذه النعم يختم الآيات الثلاث ببيان السبب الذى من أجله حدثت هذه النعم ، وأفاض على عباده من الأرض البائرة خيرات لا حصر لها ، ذلك السبب هو ما بذل

---

(١) سورة يس : ٣٥ .

فى استصلاحها من جهد ، وما أنفق من عمل دائب ، فهذا الخير العميم جاء من عمل أيديهم ، ولم يهبط عليهم من فوق رءوسهم بدون كفاح .وفضل الله فى هذا أنه هيأ لهم الظروف ، وأقدرهم على العمل ، ووهب لهم الصحة والقدرة على الإنتاج ، وذلّل لهم الأرض وأدوات زرعها ، وأخصب المحصول لقاء ما جهدوا ، ومنحهم جزاء عملهم ما توقعوا ، وأكثر مما توقعوا : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ)(١).

وحديث القرآن فى هذه الآيات الثلاث يجعل حصول المؤمن على ثمرة جهده داعية له إلى شكر الله ، والإيمان به ، فهو من الدواعى القوية إلى اليقين بعدل الله وفضله .

وتيسير الله سبحانه للعبد أن يحصل على نتيجة عمله هو تشريف لكفاحه ، وتقدير إلٰهى له ، أشبه بوسام تضعه السماء على صدور العاملين الكادحين ، فى استصلاح الأرض ، واستخراج خيراتها .

وليس بعد ذلك تمجيد لعمل اليد ، وإبراز لقيمته وأثره فى حياة الناس .

أيها المسلمون :

لقد وردت فى القرآن وفى السنة أمثلة كثيرة تؤكد هذا المعنى ، وقيمته الخطيرة ، وتصف الأنبياء عليهم السلام بأنهم كانوا ذوى حرف وصناعات ، برغم مسئولياتهم الهائلة فى الدعوة إلى الله ، وانشغالهم بذلك عن العمل والاحتراف ، لولا أن الله جلت قدرته قد اختار لهم أن يحترفوا ، وأن يكسبوا قوتهم بعرق جبينهم .

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بشأن داود عليه السلام : « ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعاماً خَيْرًا مِنْ أَنْ يأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وإِنَّ نَبِىَّ اللهِ داوُدَ علَيْهِ

(١) سورة الطلاق : ٢ و ٣ .

السَّلامُ كَانَ يأْكُلُ منْ عملِ يده »[١].

وهذه الإشارة إلى داود هى التى جاءت فى القرآن مفصلة فى قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ، وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)[٢] .

لقد كانت مهنة داود أن يصنع الدروع والسيوف ، أشبه بمهنة الحدادين اليوم ، وهى من فضل الله عليه ، حين ألان له الحديد ، وأقدره على تحويله إلى أدوات للحرب والقتال .

كذلك تكررت فى القرآن الكريم الإشارة إلى احتراف نوح عليه السلام لمهنة النجارة ، وصناعة السفن : (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ، وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)[٣] .

وأشار القرآن إلى أن موسى عليه السلام اشتغل برعى الغنم عشر سنين أجيرًا فى أرض مدين قبل أن يبعثه الله رسولا .

كما نعلم من سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يرعى فى صدر شبابه الغنم ، ثم اشتغل بالتجارة ، فى مال خديجة بنت خويلد ، زوجه ، رضى الله عنها – فيما بعد .

فهؤلاء هم أقطاب النبوة ، وأولو العزم من الرسل ، وقد شرفوا باحتراف مهنة يعيشون على كسبها ، ويستغنون بها عن سؤال الناس، فهذا هو خير الطعام .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) سورة سبأ : ١٠ و ١١ .
(٣) سورة هود : ٣٧ و ٣٨ .

ولا ريب أن هؤلاء الرسل لم يتحولوا بهذه المهن إلى أغنياء، يجمعون المال ، ويكنزون ، وإنما كان كل ما حصلوه وسيلة إلى العيش الكريم ، الذى يحفظ الكرامة ، قبل أن يحفظ الرمق ، ويصون ماء الوجه ، قبل أن يصون أنفاس الحياة .

وذلك أيها المسلمون هو ما حض عليه نبينا صلى الله عليه وسلم ، حين رغب أصحابه فى أن يحترفوا حرفة ، تغنيهم عن سؤال الناس ، فعن الزبير ابن العوام رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأَنْ يأْخُذَ أحدُكُمْ أَحْبُلَه فيأْتِيَ بحزْمَةٍ منْ حَطَبٍ عَلى ظَهْره فَيَبيعَهَا ، فَيَكُفَّ اللهُ بهَا وَجْهَهُ ، خَيْرٌ لَهُ منْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ : أَعْطَوهُ أَمْ مَنَعُوهُ » (١) .

إن الإسلام لا يعرف الطبقة التى ترث الغنى والبطالة ، لأن المؤمن مدعو دائماً إلى أن ينفق ماله فى سبيل الله ، ولن يدوم المال مع البطالة ، ولذلك حث على العمل ، مهما قل شأنه ليمكن استثمار المال ، لأن البطالة قطعاً أحقر منه . وإذا تساوى الناس أمام الدعوة إلى العمل والاحتراف ، لم يكن بينهم وضيع الحرفة يخجل منها ، وآخر شريف الحرفة يفخر بها على الناس ، لأن شرف العمل ناتج من شرف الدعوة إليه. وهو وسيلة إلى استدامة النعمة ، وإشباع الحاجة ، وعون على الإنفاق فى سبيل الله ، والإسهام فى دعم بنائه ، وكل ميسر لما خلق له. وما دام هذا هو الهدف من العمل فإن الحرفة اليدوية لا تقل شأناً عن العمل العقلى ، لأن الهدف لدى المحترف والمفكر والعالم واحد ، ولذا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه عنه ابن عمر رضى الله عنهما : « إِنَّ اللهَ يُحبُّ الْمُؤْمنَ الْمُحْتَرف » (٢). ويقول فيما روته عنه عائشة رضى الله عنها : « مَنْ أَمْسَى كالاًّ مِنْ عَمَل

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الطبرانى .

يَده أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ »[١].

أيها المسلمون :

لقد وعد الله العاملين منكم ، الذين يجهدون لكسب عيشهم ، بالجزاء الأوفى يوم القيامة ، فضلا عما يكسبون فى الدنيا من نعمة وستر : (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، والشرط الوحيد للحصول على هذا الأجر الربانى أن تصطحب دائماً النية الصالحة ، وتحتسب ما تلقى من عناء ومشقة عنده تعالى ، وتصبر على ما تلقى من تعب فى طريق الوفاء بعملك ، وتتحلى بالإخلاص فى أدائه .

وبعد هذه النية تستطيع أن تنال جزاءين : الجزاء العاجل ، من صاحب العمل ، وسوف يكون جزاءً سخيًّا ، لأن العامل النشيط المخلص يكون ظاهر المكانة ، قوى الشخصية ، محبوباً من كل من يتصل به ، والجزاء الآجل من رب الكون وخالقه الذى اطلع على قلبك ، وعلم منك صدق النية ، وطهارة الاتجاه ، والتجرد عن الرياء وحب الظهور. وهذا المعنى هو ما حدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه كعب بن عجرة رضى الله عنه . قال : مر على النبى صلى الله عليه وسلم رجل فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جَلده ونشاطه ، فقالوا : يا رسول الله ؛ لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وُلْده صغَارًا فَهُوَ فِى سَبيل الله ، وإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْن شَيْخَيْن كَبيرَين فَهُو فِى سَبيل الله ، وإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسهِ يعفُّهَا فَهُوَ فى سَبيل الله ، وإن كانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً ومُفَاخَرَةً فَهُوَ فِى سَبيل الشَّيْطَان »[٢] .

فهذا العمل فى سبيل إعالة الأطفال أو الأبوين عبادة يتقبلها الله

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه الطبرانى .

سبحانه ، شأنها شأن الصلاة والزكاة والصيام والحج. إن حفظ الأبدان وحفظ الأديان ضرب من الجهاد المتشابه المقبول ، وكل ذلك فى سبيل الله.

فهل وجدتم أيها المسلمون ديناً قبل الإسلام يدعو الناس إلى العمل بهذه الصورة ، ويلح عليهم أن يجعلوه قاعدة حياتهم الاجتماعية ، وأن يعتزوا به ، ولا يفرطوا فيه . . ؟ حتى إنه عَدَّ الزاهد المتبطل أقل شأناً ممن يعوله وينفق عليه ، وجعل أطيب الكسب ما كان من عمل الرجل بيده ، كما جعل اليد المعطية هى العليا ، واليد الآخذة السائلة هى اليد السفلى . وبذلك قضى على طائفة المتعطلين باسم الدين ، أو المتكسبين بالتجارة فيه ، وأحال المجتمع كله إلى خلية ناشطة ، يبذل كل فرد فيها من عرقه وجهده ليؤدى واجبه قبل أن يأخذ حقه ، وليمنح الحياة لمن خلفه قبل أن يحوز شيئاً لنفسه ، وتلكم هى التضحية الحقة ، والعبادة فى أسمى صورها .

بل لقد وجدنا الدين يحض على مضاعفة الجهد فى الإنتاج ، ليتحقق كل المطلوب ، فى نصف المدة المقررة ، وهو ما نفهمه من تشجيع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر رضى الله عنه حين كان يحمل حجرين حجرين فى بناء مسجد المدينة ، وكان سائر الناس يحملون حجرًا حجرًا ، وما ذلك إلا لإدراك النبى لقيمة العمل فى بناء المجتمع الإسلامى .

اذكروا ذلك كله أيها المسلمون ، واذكروا معه أن أعظم ما يرفع قيمة العمل أنه هو الطريق الوحيدة إلى رضوان الله ، لقد طالبكم به فى قوله : (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1] ، فإذا قبل منكم أعمالكم أدخلكم الجنة ، وجعلكم خالدين فيها (فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)[2].

---

(١) سورة التوبة : ١٠٥ .

(٢) سورة الزمر : ٧٤ .

عن سعيد بن عمير عن عمه رضى الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَىُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ . . قال : «عَمَلُ الرَّجُل بيَده ، وكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٌ» (١) .

وعن عبد الله بن محصن رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِى سِرْبه ، مُعَافًى فِى بَدَنه ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بحَذَافيرِهَا» (٢) .

---

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه الترمذى

العدالة فى شتى صورها

الحمد لله أحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، أقام الكون على الحق ، وقضى بين عباده بالحق ، ودعاهم إلى نصرة الحق : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، خير من حمل الميزان ، واحتكم إليه خصمان ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، الذين رفعوا لواء العدالة ، وأنصفوا المظلوم مهما ضعف ، من الظالم مهما قوى ، فكانوا من المصلحين .

أما بعد ؛ فيقول الله سبحانه فى كتابه الكريم : (فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ)[1] ، ويقول عز من قائل : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ)[2] .

أيها المسلمون :

يتكرر فى هاتين الآيتين معنى من المعانى الإنسانية ، فى أمر من الأوامر الإلهية ، هو الأمر بالعدل ، فهو فى الآية الأولى وحىٌ وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ) ، وهو فى الثانية إخبار عن الله عز وجل : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) .

والعدل المراد هنا هو العدل المطلق ، الشامل لكل حال من الأحوال ، التى يتعرض لها الفرد فى المجتمع ، حاكماً أو محكوماً ، غنيًّا أو فقيرًا ، قويًّا أو ضعيفاً ، رجلا أو امرأة ، فهم جميعاً خلق الله ، وذلك الدين هو أمر

---

(١) سورة الشورى : ١٥ . (٢) سورة النحل : ٩٠ .

الله الذى أنزله ليصلح شأنهم ، كما أراد لهم .

وفى صفات الله عز وجل صفتان تتصلان بهذا المقام ، أولاهما أنه وصف نفسه بأنه (الحق) ، والثانية أنه (العدل) . والحق والعدل شرطان يتوقف عليهما صلاح الأمة ، وبدونهما ترتد إلى أسفل مكان ، وأسوأ حال. فالذى يأكل (حق) الناس ، أو ينكر عليهم (حقهم) ، مسىء إلى العباد ، مستوجب لغضب (الحق) سبحانه وتعالى . وهو حينئذ خارج على شريعة (العدل) الذى قدسه الله حين وصف نفسه بأنه (الحكم العدل) .

ومن هنا نفهم كيف ترتبط قضية (الحق والعدل) بذات الله ، وبجوهر العقيدة ، قبل أن تكون قضية المجتمع ، أو مشكلة الحياة .

فالحقيقة الأساسية فى سلوك المؤمن هى إحساسه دائماً بوجود الله مع كل خطوة يخطوها ، وكل همسة يهمسها ، فلا تزن الدنيا فى نفسه مثقال ذرة ، حين امتلأت هذه النفس بمحبة الله ، وبالخوف منه ، إنه يتذكر دائماً أن الله (العدل) سوف يحاسبه عاجلا أو آجلا ، وأن أعماله تحصى عليه ، لا تخفى منها خافية ، ثم هى موزونة يوم القيامة ، لإقامة العدل بين الخلائق ، ونفى الظلم . وهو يعتقد أن ميزان الله ميزان حساس ، يزن الذرة ، ويحسبها ، ويجزى عليها شراً أو خيراً ، فكيف يفعل عن هذا كله ، ولقد حدث عنه الله سبحانه فى قوله : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)[1] .

ذلكم هو شعور المؤمن . لا يتجه إلى الناس ، وإنما هو يستحضر رهبة

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .

الله فى قلبه ، حين يقدم على عمل ، أو يضطلع بمسئولية ، هذا أبو بكر رضى الله عنه ، يقول للناس يوم تولى الخلافة : « أيها الناس الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » . فإقامة العدل هنا ، وهى مسئولية خليفة رسول الله ، لا تلقى بالا للقوى من حيث هو قوى ، لأنها ترى أن الحق أقوى منه ، وهو الحق الذى يشد أزر الضعيف حتى ينتصر .

أيها المسلمون :

لقد تتبع القرآن هذا الأمر بالعدل ، ليؤكده فى أحوال كثيرة ، وليرغب المؤمنين فى التزامه ، وتنفيذ أحكامه ، فنجده فى قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) يقرنه بالإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، كما يجعله فى مقابل البغى المقترن بالفحشاء والمنكر .

وهو فى الآية الكريمة : (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) رسالة يبلغها الرسول إلى العالمين عن الله عز وجل ، الذى جعل مهمته الأساسية أن يعدل بين الناس : (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ) .

ويمضى القرآن ليحرر دستور العدل من كل شائبة ، ويجعله عدلا مطلقاً ، لا يخضع لتهديد ، ولا يتأثر بأهواء النفس ، وأحوال الرضا والغضب ، فيحدث المؤمنين ألا يدفعهم كرههم لبعض الناس إلى التخلى عن العدل معهم ، مهما عظمت أسباب الكراهية : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)[1] ، وتستمر الآية الكريمة لتبين للناس أن العدل ليس مطلوباً من أجل إيصال الحق إلى أصحابه فحسب ، بل لأنه أقرب إلى رضوان الله (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[2] ، وذلك أعظم ما يحرص على بلوغه المؤمنون ،

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

(٢) سورة المائدة : ٨ .

من أجل الله ، وابتغاء مرضاته .

لم يكتف القرآن بهذا ، بل إنه تتبع أيضاً دستور العدل ، ليؤكد شموله لكل حال من أحوال الأفراد والجماعات .

فلقد تناول مشكلة التعامل المادى بين الناس ، فشرع إقامتها على أساس العقود ، وألا تترك سائبة ، يسهل على الذمم الخربة إنكارها ، ثم أمر كاتب العقد أن يكون عادلا : (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) (١) ، وأمر المملى لشروط العقد أن يلتزم كذلك العدل : (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ)(٢) . ثم اشترط العدالة فيمن يشهد لإثبات الحق ، وأن يجعل قول الحق نصب عينيه دون أن يرعى قرابة ، أو يفرط من أجل منفعة : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)(٣) (وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) (٤).

ويأتى أخيرًا دور القاضى الذى يجد بين يديه العقد المملى بالعدل ، المكتوب بالعدل ، الموثق بشهادة العدول ، فيتوجه إليه القرآن بآية تدوى فى قلوب القضاة إلى يوم الدين : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)(٥).

وليس القاضى هنا هو من يشغل وظيفة القضاء بين الناس فحسب ، بل كل من حكم بين اثنين قاض ، حتى الزوج ، الذى تضطره ظروفه أن يجمع بين زوجتين ، يعدّ قاضياً ، مطلوباً منه أن يحاول الاقتراب من العدل ، وألا يحكم الهوى والميل إلى إحداهما ليظلم الأخرى : (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ)(٦) ، (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)(٧).

(١) سورة البقرة : ٢٨٢ .
(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ .
(٣) سورة الأنعام : ١٥٢ .
(٤) سورة الطلاق : ٢ .
(٥) سورة النساء : ٥٨ .
(٦) سورة النساء : ١٢٩ .
(٧) سورة النساء : ٣

غير أن الإسلام – أيها المسلمون – قد ركز قدرًا كبيرًا من الاهتمام على جانب العدل بين الرعية ، ودعا الإمام والحاكم أن يلتزم العدالة المطلقة بين الناس ، وألا يظلم أحدًا منهم ، لأن الظلم فضلا عن مرارته فى الدنيا على أنفس المظلومين – هو ظلمات يوم القيامة فى أعين الظالمين .

وانظروا إلى تلك الصورة التى قدمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : « ثَلَاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِر ، والإِمَامُ الْعَادِلُ ، ودَعْوَةُ الْمَظْلُوم » ، فالدعاء سلاح رهيب ، من أسلحة الحق سبحانه وتعالى ، يجريه على لسان من يشاء من عباده ، وقد وضعه فى يد كل من الحاكم والمحكوم ، ومنح كلا منهما فرصة ثمينة ليكون مستجاب الدعاء ، ماضى السلاح ، فالحاكم العادل يدعو فيستجاب له ، والمحكوم المظلوم يدعو على ظالمه فيستجاب له .

غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكتفى بأن يسلم كلا منهما سلاحه ، وإنما هو يشجع المظلوم على استخدامه ، ويكشف له عن سرعة مفعوله فيستطرد قائلا : « ودَعْوةُ الْمَظْلُوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : [وعِزَّتِى لأَنْصُرَنَّكَ ولَوْ بَعْدَ حِين] »[1].

ولعل فى هذا ما يفسر لنا أبلغ تفسير قوله تعالى : (لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَولِ ، إلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً)[2].

ذلك كله ليرفع من شأن العدل ، ويعلى من مكانة الإمام العادل ، حتى ليجعله النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أيضاً فى أعلى مقام بين المؤمنين : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فى ظِلِّه ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه ، إمَامٌ عَادِلٌ . . »[3] فَهُوَ

(١) رواه أحمد والترمذى .
(٢) سورة النساء : ١٤٨ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .

إمام المستظلين بظل الرحمن .

فيأيها المسلمون . . هذا هو دينكم ، يأمركم بالعدل ، ويجعله شريعة لكم ، ويحرم عليكم الظلم ، ويخوفكم عواقبه ، فعن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : «ياعِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً ، فَلاَ تَظَالَمُوا »[1] . وكل منكم يقف من نفسه ، ومن أخيه . ومن أهله ، ومن الناس موقف القاضي ، الذى يصدر الحكم ، وينتظر العواقب ، والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربي ، فالعاقل من أنصف من نفسه ، قبل أن ينتصف الله منه .

لقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم الناس القود من نفسه ، فمن كانت له مظلمة عنده أذن له أن يقتص منه ، وذلك ليلقى الله خالصاً بريئاً من مظالم العباد ، وليعطى القدوة من نفسه لمن يتولى الأمر من بعد : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[2].

وأنتم مدعوون إلى أن تحاسبوا أنفسكم ، وتحكموا لها أو عليها ، كما أنكم مدعوون أن تلتزموا جانب العدل فى علاقاتكم بإخوانكم ، وأبنائكم ، وخدمكم ، وأهليكم ، لا تظلم أخاك ، ولا تحرم ولدك من ميراث لتعطى ولدًا آخر ، ولا تظلم خادمك ، ولا تجامل بعض أهلك على حساب بعض ؛ لكيلا تزرع الحقد والبغضاء فى قلوبهم ، وتورثهم النزاع والشحناء فيما بينهم ، ثم يبقى لك غضب الله عند لقائه ، واذكروا دائماً أن الله قد حكم بين العباد ، وأنكم لستم إلا منفذين لأحكامه : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة البقرة : ١٧٩ .

أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[١].

واستمعوا إلى أدب النبوة يحدد لكم المنهاج ، ويخوفكم عاقبة الظلم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذًا إلى اليمن فقال : « اتَّقِ دعْوَةَ الْمظْلُوم ، فَإِنَّهُ لَيْس بيْنَهَا وبيْن الله حجاب »[٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« إِنَّ الْمُقْسطين عنْد الله على منَابرَ منْ نُورٍ ، عن يمينِ الرحْمن ، وكلْتَا يديْه يمين ، الَّذين يعْدلُونَ فِى حُكْمِهِمْ وأَهْليهِمْ وما وُلُّوا »[٣] .

---

(١) سورة النور : ٦٣ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم والنسائى .

الشورى

الحمد لله ، القائم على كل نفس بما كسبت ، والعالم بما قدمت وأخرت ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، تفرد بأمر الخلق ، ودعاهم إلى أن يتعاونوا على البر والتقوى ، وأن يكون أمرهم فيما بينهم شورى ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، لم ينفرد دون أصحابه برأى ، ولا اتبع فى حياته حكم الهوى ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، الذين أخلصوا مع النبي جهادهم ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فيقول الله سبحانه مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم ، (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)[1] .

أيها المسلمون : تكشف هذه الآية الكريمة عن سر من أسرار وحدة المسلمين ، واجتماع كلمتهم حول النبي صلى الله عليه وسلم ، هو ما اتصفت به شخصية النبي من رحمة ورقة قلب ، وحدب على كل فرد فيهم . ولو كان النبي – على خلاف ذلك – فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حوله ، ولانهار بناء الأمة المحمدية من أول لحظة ، ولما قامت للإسلام قائمة ، وذلكم هو ما عناه الحق سبحانه فى قوله : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[2].

ثم إن الله سبحانه بواسع حكمته يوجه النبي إلى ما يحفظ. هذا الاجتماع

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ . (٢) سورة التوبة : ١٢٨ .

الشامل ، ويبقى على الوحدة بين أبناء الأُمة ، يوجهه إلى أن يشاور أصحابه في الأمر ، فإذا تمت له المشورة ، واطمأن قلبه إلى حل معين توكل على الله وأمضى .

وأهم ما فى هذه العبارة القرآنية : (وَشَاوِرْهُمْ فى الْأَمْر) هو كلمة (الأمر) التى تشمل كل صغيرة وكبيرة ، من شئون المجتمع ، وهو تعبير تكرر فى آية أخرى تقرر أن الشورى من صفات المجتمع المؤمن ، قال تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)(١).

وهذه ملاحظة جديرة باهتمامنا ، فإن الله جلت قدرته - وهو العليم بما يصلح حال الأُمة - لم يقصر الشورى على شئون الحرب ، أو على شئون الحكم ، أو على شئون الاقتصاد ، أو شئون الأُسرة ، أو شئون القضاء ، بل جعل ذلك كله ، داخلا فى مفهوم (الأمر) ، وأوجب فيه كله الشورى بين المؤمنين .

والعجيب أن القرآن يمهد لإيجاب الشورى على المؤمنين تمهيدًا خاصًا ، حين يصفهم أولا بأنهم يستجيبون لله ، وبأنهم لا يقصرون فى أداء فرائضه ، وأولها الصلاة ، فإذا تم لهم ذلك فهم جديرون أن يجعلوا الشورى قاعدة حياتهم ، وقانون أمرهم .

ولو أهملوا الشورى فيما بينهم لاختل شرط من شروط صلتهم بالله ، وانهدم ركن عظيم من أركان مجتمعهم الإلهى ، فكأن (الشورى) من عناصر الإيمان ، وهى من آيات الاستجابة لله .

وقد استقر إجماع المسلمين على أن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ، وأجمعوا على أن الوالى الذى لا يستشير أهل العلم والدين واجب

(١) سورة الشورى : ٣٨ .

عزله ، وعلى أن الشورى تجرى فى إطار قوله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُون)[١] ، فواجب الحاكم أن يشاور العلماء فيما لا يعلم من أمور الدين والدنيا ، ويشاور القادة فيما يتعلق بالحرب ، ورجال المال والإدارة والاقتصاد فيما يتصل بتدبير مصالح البلاد ، وضرورة تطويرها ونهضتها ، فالأمر كله شورى .

فنظام المجتمع المسلم يوجب على الحاكم أو الوالى أن يستشير ، ويوجب على المستشار أن يكون أميناً فيما يصدر من مشورة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمن »[٢] .

على هذا كان نهج النبى صلى الله عليه وسلم وسنته ، لم يواجه مشكلة من مشكلات المجتمع الإسلامى الأول إلا لجأ إلى أصحابه ، يضع الأمر بين أيديهم ، ويطلب منهم آراءهم ، فعل ذلك فى أخطر المواقف التى واجهها مع المشركين ، فى غزوة بدر ، حين أتاه الخبر بمسير قريش ، فأخبر أصحابه واستشارهم ، فقال له المقداد بن عمر – وكان من المهاجرين – والذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برْك الْغَماد لسرنا معك حتى ننتهى إليه ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيرُوا علىّ – يريد الأنصار – فقام سعد بن معاذ – وكان من الأنصار – فقال : أنا أجيب عن الأنصار ، كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ . . قال : أجلْ ، قال : فامْض يا رسُول الله لما أردْت ، فوالذى بعثك بالحق لو اسْتَعْرضْتَ هذَا البحْر فخُضْتَهُ لخُضْنَاهُ معكَ ، ما بقى منَّا رجُلٌ واحدٌ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيرُوا على بركَة الله .

فها هو ذا القائد محمد صلوات الله عليه لا يقرر مبدأ خوض المعركة ،

---

(١) سورة الأنبياء : ٧ .

(٢) رواه أبو داود .

إلا بعد أن يستشير كل الناس ، مهاجرين وأنصارًا ، لأنهم هم الذين سيقاتلون ، ولا بد أن يكونوا مقتنعين بخوض المعركة ، ولا بد أن يطمئن النبي والقائد إلى صدق عزائمهم .

وفى مرحلة الاستعداد لخوضها يبدو لأحد الصحابة أن موقع معسكر المسلمين أضعف مما ينبغى ، وهو الحباب بن المنذر ، فيمضى إلى النبي ويقول له : يا رسول الله ، إن هذا المكان الذى أنت به ليس بمنزل ، انطلق بنا إلى أدنى ماء من القوم ، ثم نبنى عليه حوضاً ، فنشرب ونقاتل ، فيقتنع الرسول بالعرض ويقول : الرأى ما أشار به الحُباب ، ويأخذ بمشورته .

لقد كانت حصيلة هذا الموقف واستشاراته كلها نصرًا مؤزرًا لجند الحق ، وأصحاب محمد القائد ، الذى لا ينفرد دون صحابته برأى ، ولا يستبد بموقف ، ولقد وصفه الله بقوله : (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)[1] .

وفى نهاية الغزوة ، وبعد أن وقع من المشركين أسرى كثيرون – نجد النبي يستشير أصحابه فى مصيرهم ، على الوجه الذى ذكره القرآن الكريم فى آخر سورة الأنفال . لقد بدأت الغزوة بالشورى ، وانتهت بها أيضاً .

أيها المسلمون :

لكل منا مشكلات ، وكل منا لا يعدم فى طريقه أن يجد أخاً يهديه إلى الخير ، ويشير عليه بالصالح من الأمر ، كما أنه قد يصادق رجلاً لا يخلص له فى القول ، ولا يصدقه النصح ، وواجب الإنسان حين يحتاج إلى المشورة أن يتخير أصحاب الدين وذوى الخلق القويم ، والضمير الحى ، والقلب الطاهر ، وأن يتجنب أصحاب الهوى وذوى الأخلاق الفاسدة ، والضمير الميت ، والقلب المظلم .

---

(١) سورة ق : ٤٥ .

من الناس من إذا استشرته أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر ، وحذرك من ظلم العباد ، ومن الناس شياطين أخبث من شياطين الجن ، يأمرون الناس بالمنكر وينهونهم عن المعروف ، ويدفعونهم إلى ظلم الضعفاء من عباد الله ، ويلبسون لهم مسوح الأتقياء لتضليلهم ، والله مطلع على كل شيء ، فإذا ظلمت عبدًا من العباد فاعلم أنك سوف تحاسب حساباً عسيرًا ، أنت ومستشارك الظالم : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[1] ، وإذا أنصفت عبدًا من العباد من نفسك ، وأعطيته حقه ، فاعلم أن الله قد ادخر لك مثوبته ورضوانه ، أنت ومن أشار عليك بالعدل والإنصاف .

وهذا الموقف ينطبق على كل فرد فى الأمة ، حاكماً كان أو محكوماً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « كُلُّكُمْ راع ومَسْئولٌ عنْ رعِيَّتِهِ »[2] ، ويقول أيضاً :

« ما بعثَ اللهُ مِنْ نبيٍّ ، ولاَ كَان بعْده من خَلِيفَة إلاَّ لَهُ بِطَانَتَان : بطانَةٌ تَأْمُرُه بالْمَعْرُوفِ ، وتَنْهَاه عنِ الْمُنْكَرِ وبطَانَةٌ لا تَأْلُوهُ خَبالا ، فَمنْ وقِى شَرَّها فَقَدْ وقِى »[3] .

أيها المسلمون :

هذا هو دينكم الذى أراده الله لكم ، شرعة ومنهاجاً ، دستورًا تسير عليه حياتكم ، ويلتزم به كل مسئول فيكم ، حتى لو كان خادماً ، حتى لو كان أميرًا ، فكلنا عباد الله ، والله وحده هو صاحب الأمر : ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[4] .

وقد أراد لكم أن تقوم الحياة بينكم على أساس الشورى ، وهى إرادة

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٢ .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه البخارى.
(٤) سورة الأعراف: ٥٤ .

من الله ، ولم تنعم البشرية بهذه الروح الشورية (الديمقراطية) قبل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الناس ـ قبل الإسلام ما بين حاكم مستبد ، متفرد بالسلطة ، يدعى أنه من نسل الآلهة ، ومحكوم مغلوب على أمره ، يساق كالقطيع لإشباع رغبات الحاكم الطاغوت . وجاء الإسلام فشرع للناس دستور الحرية والديمقراطية ، وأفاقت الدنيا على صوت نظام جديد ، ينادى بحرية الرأى ، ويمنح الفرد قيمة عظيمة فى مجتمعه ، ويعطى المحكوم سلطة الشورى فى مواجهة الحاكم ، وذلك قبل أن تخرج أوربا على العالم بديمقراطيتها بألف عام أو تزيد .

وها قد انقلبت الحال ، فأصبحنا نحن المسلمين نتلقى عن أوربا دروس الشورى ، التى سن الله أساسها فى محكم كتابه ، وقرع آذاننا بآياتها فى كل لحظة ، وأرسل إلينا بخاتم النبيين والمرسلين ، الذى أعطانا القدوة من نفسه ، وضرب لنا أروع أمثالها ، وبين لنا خير مناهجها . إن حقيقة الديمقراطية الإسلامية لا تنحصر فى الشئون السياسية البرلمانية كما هى ديمقراطية أوربا ، وإنما هى ديمقراطية شاملة لكل نشاط فى المجتمع يتناول الفرد أو الجماعة ، حتى ليمكن أن يقال بحق إن المجتمع الإسلامى هو مجتمع الشورى والديمقراطية الكاملة ، ولا ريب أن الإسلام لم يحدد شكلا معيناً من أشكال الديمقراطية يتم بمقتضاه استفتاء الناس حول أمورهم ، وذلك ليترك الباب مفتوحاً لتطور الحياة ، وطرق الحكم وأساليب السياسة ، فالمهم هو أن يكون الأمر شورى ، على أى وجه كانت هذه الشورى ، ما دامت استجابة لأمر الله ، واعتصاماً بحبله .

فيأيها المسلمون : تذكروا دائماً هذه الحقائق عن دينكم ، واذكروا أن مبدأ الشورى قد نال فى الإسلام أرحب مدى فى تطبيقه ، حتى ألزم الله به

المعصوم ، فقال له سبحانه : (وَشَاوِرهُمْ فِى الْأَمْرِ) ، مع أنه كان يوحى إليه حكم الله فى كل موقف ، وذلك ليسرى الإلزام إلى كل مسلم مسئول عن عمله ، وعن رعيته ، ما دام الدين لم يستثن حتى رسول الله ، ومن هنا قال خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم تولى أمر الناس: « أيها الناس ، إنى ولِّيتُ عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أخطأت فقوِّمونى » .

فإذا علمتم أن الشورى أساس من أسس الإيمان بالله ، وأنها قوام حياة الأمة المسلمة ، فالتمسوها ـ كما أمركم رسول الله ـ عند أصحاب العقل ، وذوى العلم والدين ، وانتصروا بها للإسلام ، يعز بكم ، وتعزوا به .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا أَراد الله بالْأَمِيرِ خَيْرًا جعل لَهُ وزير صِدْقٍ ، إِنْ نَسِى ذَكَّرهُ ، وإِنْ ذَكَر أَعانَه ، وإِذا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ ، إِنْ نَسِىَ لَمْ يُذَكِّرْه ، وإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْه »[1].

---

(١) رواه أبو داود .

الحرية فى إطار الدين

الحمد لله ، خالق الخلق ، واهب العقل ، مدبر الأمر ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، خلقنا أحرارًا ، وأراد منا أن نعيش أطهارًا ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، ربَّى أصحابه على الحرية ، وحذرهم من العبودية ، إلا لذات الله ، ذى الجلال والإكرام . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين لم يحنوا الجباه إلا لله ، فما ضعفوا وما استكانوا ، فآتاهم اللهُ ثَوابَ الدُّنيا وحُسنَ ثوابِ الآخرةِ ، والله يُحبُّ المحسنين .

أما بعد ؛ فيقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : (لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا . واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1].

أيها المسلمون :

فى هذه الآية الكريمة يحدثنا رب العزة عن مبدإٍ من مبادئ العقيدة ، التى ارتضاها لنا ديناً ، هو مبدأ حرية اختيار الدين ، الذى يتبعه المرء ، دون أن يكون لأحد حق إكراهه على اتباع دين آخر لا يقتنع به .

وإذا قرر الإسلام نفى الإكراه فى باب العقيدة والدين ، فإن معنى ذلك أنه يحترم حرية الفرد ، وحرية الجماعة من جانب من أهم جوانب الحياة ، يتبعه ولا شك سائر جوانبها .

وليس على ظهر الأرض دين قدس الحرية كما قدسها الإسلام ، فى كل

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

مستوى من مستويات الحياة . فهو قد قرر حرية الفرد ، وحرية الجماعة ، حرية الوطن ، وحرية المواطن ، حرية الرأى ، وحرية التملك ، وكل هذه الحريات متفرعة عن تقريره الأساسى لحرية العقيدة .

وبعد أن قرر هذه الحريات طلب إلى الناس أن يدافعوا عنها بالدم وبالروح : « مَنْ قُتل دُونَ مَاله فَهُوَ شَهِيدٌ ، ومَنْ قُتلَ دُونَ دَمه فَهُوَ شَهِيدٌ ومَنْ قُتلَ دُونَ دينه فَهُوَ شَهِيدٌ ، ومَنْ قُتلَ دُونَ أَهْله فَهُوَ شَهِيدٌ »(١).

وليس من الجائز فى نظر الدين أن يفرط الفرد فى حقه فى الحرية ، فهو مدعو إلى القتال دفاعاً عنها ، ومن لا يقاتل دفاعاً عن حريته وعن حقه ليس جديرًا بالحرية ولا بالحياة .

والحديث عن الحريات التى كفلها الإسلام للمسلم الفرد ، وللجماعة المسلمة حديث طويل ، ويزيد هذا الحديث إذا ما نظرنا إلى الضمانات التى وضعها التشريع لممارسة هذه الحريات ، تأميناً لها ، وحماية للمجتمع الإسلامى من العبث باسمها .

ولنأخذ على ذلك مثلا: حرية الرأى ، وهى عبارة شائعة يقصد بها أن يكون للفرد حق إبداء الرأى ، أو اتخاذ موقف ، دون أن يتوقع مصادرة لرأيه أو لموقفه من جانب أى فرد آخر ، أو جماعة ، أو سلطة .

وقد مضى الإسلام فى تطبيق هذه الحرية إلى أبعد الحدود ، حين ندب المؤمن إلى أن يقول رأيه فى الشئون الخاصة به ، وفى الشئون الخاصة بغيره . سواء أكان هذا الغير فردًا أم جماعة ، مهما يكن شأنها ، وذلك فى حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وليس لأحد أن يصادر رأى آمر بمعروف ، أو ناه عن منكر ، ولا أن

---

(١) رواه أبو داود والنسائى والترمذى .

يسىء إلى شخصه، ولا أن يحول بينه وبين أن يجهر به ، فالمؤمن لايخشى أحدًا من المخلوقات ، وإنما هو يخشى الله وحده ، وهو لذلك يقول الحق ، لا يهاب غضب أحد ، ولا يقصد إلى رضا أحد .

وكيف يهاب أحدًا ، وهو الذى يقرأ دائماً قوله تعالى فى وصف أحبائه : (فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ)[1].

وكيف يهاب مخلوقاً ، وهو الذى حفظ ووعى قول حبيبه وقدوته محمد صلى الله عليه وسلم : «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبِلِسَانه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبه ، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[2] .

وهكذا يجد المؤمن نفسه فى مواجهة موقف رحيب ، يطلب إليه أن ينهض بإصلاح المجتمع، وإزالة المنكر بكل وسيلة يطيقها : باليد ، وباللسان، وبالقلب .

وليس معنى أن يغير الإنسان المنكر بقلبه أن إيمانه ضعيف ، بل معناه : أن هذا الإنكار بالقلب هو أقل ما ينتظر من مؤمن عامر القلب بحب الله وطاعته ، و «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير» .

أيها المسلمون :

فى نطاق هذه الدعوة العامة إلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، يدعو الدين أتباعه أن ينهضوا لأداء الشهادة ، حين يطلب منهم قول الحق فقال تعالى : (وَلاَتَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)[3] ، وأداء

---

(١) سورة المائدة : ٥٤ (٢) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٣ .

الشهادة نتيجة طبيعية لتمتع المؤمن بحرية الرأى ، فهو يقول الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم .

بل إن الدين نهى أشد النهى عن التعرض لمن يقول الحق فى هذا المجال فقال تعالى :

(وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ)(١) .

وهكذا نجد أن الإسلام يقر الحق ، ثم يضع له الضمانات التى تصونه لأهله ، وتمكنهم من ممارسته .

غير أن الحرية فى نظر الدين سلاح ذو حدين ، فهى حين تستعمل استعمالا عاقلا متبصرًا ، تكون أداة إصلاح ، وطريق خير للأمة ، ولكنها حين يساء استعمالها تصبح أداة إفساد ، ونذير شر مستطير .

ولذلك فقد وضع الدين بجانب الضمانات التى تحفظ الحرية حقًا لأصحابها ، حدودًا تمنع من إساءة استعمال هذا الحق المقدس .

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجه من وجوه الحرية لا تنبغى مصادرته ، ولكنه يجب أن يكون فى ثوب من الترفق بالناس ، وبخاصة المخطئين منهم :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(٢) .

ومع أن عبادة غير الله جهل وحمق وكفر ، فإن سب هؤلاء الكافرين أمر منهى عنه :

(وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(٣) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٢ .
(٢) سورة النحل : ١٢٥ .
(٣) سورة الأنعام : ١٠٨ .

ومع أن حرية التملك شريعة فى هذا الدين ، حرسها بما شرع من حدود ، كقطع يد السارق ، فإن التملك المباح هو ما كان من حلال ، لا ربا معه ، وليس نهباً لأموال اليتامى والمساكين : (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ)[1] ، (إن الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)[2] ، ومن أقدم على مثل هذا تجب مصادرة أمواله وتصرفاته لمصلحة أصحاب الحقوق .

وكان من حرية التملك أن يتمتع المسلم بهذه الحرية فى مسكنه ، دون أن يتعرض لانتهاك لحقه من أحد مهما كان : (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)[3] ، فإن من قيود هذه الحرية أن يرعى المرء جاره ، فلا يقلق راحته بأصوات منكرة ، أو بأعمال قبيحة ، أو بالاطلاع على عوراته من النوافذ وغيرها ، وكذلك ليس من حقه أن يعلى بناء الجدار إذا ترتب على هذا الإعلاء منع الهواء والضوء عن جاره .

إن جوهر تعاليم الحرية فى نظر الدين أن ترعى حرية الآخرين قبل أن تمارس حريتك ، فحريتك تنتهى حيث تبدأ حرية أخيك ، وحقك ينتهى حيث تبدأ حقوق الآخرين ، وليس من الممكن أن يعيش المرء فى مجتمع دون أن يتنازل عن بعض حرياته لدعم حرية المجتمع الذى يعيش فيه .

أيها المسلمون :

هنا نصل إلى نقطة تتصل بمفهوم الحرية فى أجيالنا المعاصرة ، فقد جهل أكثر الناس تعاليم الإسلام ، وظنوا أن الحرية سلعة مستوردة من ثقافة ،

(١) سورة البقرة : ٢٧٦ .
(٢) سورة النساء : ١٠ .
(٣) سورة النور : ٢٧ و ٢٨ .

الغرب وحضارته الحديثة فتعاطوا الحرية بمعيار منحل ، وبكأس مسمومة ، فذهب بعضهم فى فهم الحرية إلى أن من حقه أن يقول ما يشاء دون حساب . فكان أن فشا فى الشباب الأدب الرخيص ، والقصص الجنسى ، والصور الفاضحة ، وهو شر مستطير لا يمكن أن يدخل فى مفهوم الحرية ، إلا إذا كانت حرية التدمير ، وحرية تخريب الضمائر ، وإتلاف أنفس الشباب ، الذين هم عدة الوطن فى الملمات .

فإذا ما اعترض معترض غيور على دينه وعلى وطنه ـ على مثل هذ النشر الرخيص الخائن ، هبت جماعة من هؤلاء المنحلين لتسفه رأيه ، وتسب عرضه ، باسم الحرية : حرية الرأى ، وحرية الصحافة . وهى دعوى زائفة يتستر بها تجار الشهوات ، الذين ارتضعوا من سموم الغرب ، وتعلموا أساليب الصهيونية ، التى تبغى تخريب الأديان ، وتهديم الأخلاق ، لتقع الأمم فرائس سهلة فى أيديها الدنسة المجرمة .

إن أمامنا أيها المسلمون معركة رهيبة ضد العدو الرابض على أرضنا ، وليس لدينا وقت نضيعه فى الجرى وراء التافهين ، دعاة التخريب باسم الحرية ، فنحن فى ميدان قتال ، لا مجال فيه للتسلية ، أو لعبث الصغار ، أو لأحلام المراهقين ، وأول سلاح نحمله فى هذه الحرب الضروس هو أن نرفض الأخذ عن أولئك المتبسولين من أدعياء الثقافة ، فهؤلاء ليس لديهم عقيدة تعين على الكفاح ، وإنما لديهم سموم توهن القوى ، وتقتل العزائم ،

وثانى سلاح نتذرع به فى هذه الحرب أن نرجع إلى ديننا الحنيف ، الذى أحكم بناء الفرد ، وأحسن تكوين الجماعة ، ورسم منهج النهضة العامة ، وأرسى مفاهيم الحرية على أساس من العدالة والحق .

وثالث الأسلحة وأمضاها أن نعلم أبناءنا معنى الحرية ، وأنها قيمة

غنية تضاف إلى شخصية الفرد ، لتعينه على حل مشكلاته ، وتكييف حياته لا غريزة هائجة تنطلق بها متبرجة متهتكة ، لتشد خلفها الجائعين من المراهقين . فهذا ليس حرية ، بل هو اعتداء على الحرية ، وعلى الدين الذى شرعها ، وقدس أمرها .

ليس من الحرية أبدًا أن يتطاول الابن على أبيه ، والتلميذ على أستاذه ، والصغير على الكبير ، فهذه كلها أعراض مَرَضية ، لا صلة لها بالحرية ، هى أعراض انحلال خلقى ، يقلب القيم الاجتماعية ، فيقدم الخسيس ، ويعظم الحقير ، ويهدد مستقبل الأمة وأمنها .

أيها المسلمون : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[1] ، ولن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ولقد كان الأوائل من أمتنا نماذج كاملة ، للكمال الخلقى والاجتماعى والسياسى ، فهموا حقيقة الحرية ، وقيودها التى فرضها الله ، فكان المجتمع الإسلامى صورة مثلى للمجتمعات الراقية ، التى ينعم فى ظلها الحاكم والمحكوم ، والنابه والخامل ، ويتجاوب مع تعاليمها الصغير والكبير ، والعالم والجاهل .

وحسبنا أن نصغى إلى أبى بكر رضى الله عنه يخاطب المسلمين عقب توليه الخلافة : «أيها الناس ؛ إنى ولِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحْسنت فأعينونى ، وإن أسأْت فقَوِّمُونى » .

بل حسبنا أن نذكر ذلك الموقف المثالى لعمر بن الخطاب حين وقف له رجل من عامة المسلمين يوماً فقال له : اتق الله يا أمير المؤمنين ! فقال بعض الحاضرين : أتقول لأمير المؤمنين . اتَّقِ الله ؟! فقال عمر : «دعوه فليقلها لى . نِعْم ما قال . لا خير فيكم إنْ لَمْ تقولوها ، ولا خير فينا إذا لَمْ نَقْبَلْها».

(١) سورة الرعد : ١١ .

اتقوا الله وارجعوا إلى دينكم ، وأحسنوا فهم تعاليمه والتزامها : ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يمْنَعنَّ رجلاً هيبةُ النَّاسِ أَنْ يقول بحَقّ إذا عَلِمَه »[1].

وقال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ راع ، وكُلُّكُمْ مسْئُولٌ عنْ رعيَّته »[2].

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

ركائز النهضة العامة

نحمدك يا من دعوتنا إلى الهدى والرشاد ، وهديتنا إلى خير ما هديت إليه العباد ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، سن لنا من الدين ما فيه صلاح دنيانا ، وسعادة أخرانا ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، خير داع إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكنا بفضله خير أمة أخرجت للناس . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، المقتدين به ، ومن دعا بدعوته ، وسار على نهجه ، إلى يوم الدين.

أما بعد : فيقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)(1).

أيها المسلمون : فى هذه الآية الكريمة يحدثنا الله جل جلاله حديثاً رفيقاً ، حين يدعونا إلى أن نستجيب له ولرسوله ، إذا دعانا لما يحيينا ، والإحياء هنا هو (النهضة) بأشمل وأدق معانيها ، لأنه يشمل إحياء الفرد ، وإحياء الجماعة المؤمنة ، وإحياء الأنفس ، وإحياء الأرض ، وإحياء الزمان ، إنه إحياء شامل ، لأنه من لدن خالق الحياة ، والأحياء ، ويختم القرآن هذه الدعوة الشاملة بقوله : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

والواقع أن دعوة الإسلام فى جوهرها دعوة شاملة ، وسعت برحمتها العالمين ، مصداقاً لقوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)(2)،

---

(1) سورة الأنفال : ٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

ولو كانت إرادة الله قد مضت بعدم إرسال هذه الرحمة المحمدية لقضى العالم هذا الدهر الطويل ، إلى يوم الناس هذا ، متخبطاً فى ظلام الجاهلية ، نزاعاً بين قوى البغى الوثنية الصادرة من بلاد الفرس ، وقوى البغى الضالة الواردة من بلاد الروم . ولما شهدت البشرية هذا العمر الطويل المزدهر بالحضارة الإسلامية عبر القرون .

لما جاء الإسلام كانت مهمته الأولى أن يحرر الإنسانية من الرق الدينى، فلا يؤمن الإنسان إلا بإلٰه واحد ، هو رب الكون ، وبارئه ، ولا يستجيب إلا لدعوة واحدة ، هى الدعوة إلى الحياة القائمة على الإيمان والتوحيد .

لقد كان الإيمان بالله الواحد خطوة هائلة فى عمر البشر ، أقدرتهم على مواجهة الكون كله ، يحاولون فهمه ، وتعمق نواميسه ، دون خوف من القوى الخفية التى كانت تتقمص رداء الآلهة ، وذلك هو مضمون قوله تعالى : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

فالركيزة الأولى التى يقوم عليها بناءُ أية حضارة ، أو نهضة عامة هى الإيمان ، وأن يكون لها دين يلهمها ، ويدفع حركة الجماهير فى اتجاه التقدم .

وقد أسفرت جهود العلماء عن حقيقة اجتماعية وتاريخية لا شك فيها ، هى : أن الدين صانع الحضارات ، وأنه ما من حضارة قامت فى الشرق أو فى الغرب إلا على أساس دينى ، وسيظل هذا شأن الإنسان فى كل زمان ومكان .

ولسوف نجد – أيها المسلمون – أن الدين يمنح الأمم قوة لا غنى عنها فى مواجهة الأزمات ، هذه القوة هى «القوة الأخلاقية» ، أولا ، فالأمم التى

تكون أخلاقها نابعة من إيمانها يتوافر لها أعظم جانب من ثبات الشخصية وقوتها ، شخصية الفرد ، وشخصية الجماعة .

فالأخلاق الدينية تقوم على أساس الإيمان بالآخرة ، ووجود هذا المعنى فى نفس الفرد يخلق توازناً ضرورياً فى تصرفاته ، فالمؤمن لا يمكن أن يكون أنانياً ، تدور أعماله حول ذاته ، وتستهدف تحقيق ملذاته ، لأنه يؤمن بحقيقة أخرى هى أن ثواب الله أبقى وأخلد ، وأنه لن يصل إليه إلا فى الآخرة ، وأن أسلم طريق إلى الآخرة هو أن ينكر ذاته ، ويذكر ربه ، ويخدم وطنه ومجتمعه . ومن هنا يكون الإيثار ، والإخلاص ، والتفانى فى أداء الواجب ، والأمانة . وحب الخير ، كلها وسائل إلى غاية أعظم من الحياة ، هى أن يبلغ المؤمن رضوان الله فى الآخرة ، ويأمن عقاب الله عند لقائه .

وما ذلك إلا لأن معنى الآخرة قد تجسد فى نفس المؤمن حقيقة لا شك فيها ، واقتناعاً بواقع لا مراء فيه .

وعلى أساس هذا الاقتناع يضع المؤمن نهاية حياته دائماً بين عينيه ، فهو يتمنى أن تكون خير نهاية ، يتحقق بها نصر وطنه ، وعز أمته ، لقد عاش عمره كله فى تضحية وإيثار ، ولا بد أن تكون نهاية هذا العمر تضحية وإيثاراً ، ومن هنا كان حرص المؤمنين على الاستشهاد فى سبيل الله ، فهذه الفكرة الأخلاقية تحول معنى الموت ، من كونه مغادرة للحياة وعدماً فيه طعم الظلام والألم ، إلى أن يصبح فى فلسفة المؤمن وسيلة لمجد أمته وعزها ، وأداة لتحقيق النصر على العدو الرابض على أرضها ، ومدخلا إلى عز جديد ، وحياة سعيدة : « فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر على قَلْبِ بِشَرٍ » . وصدق الله العظيم :

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)[1].

لقد أصبح الموت فى عقيدة المؤمن حياة ورزقاً ، وفرحاً بفضل الله ، ومن ذا الذى لا يتمنى الحياة والرزق والفرح ؟! . . .

لم يعد الموت عدماً ، ولا ألماً ، ولا ظلاماً ، بل صار معبرًا إلى الرضوان .

ولو أننا تصورنا مجتمعاً خالياً من هذا المعنى الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام لما تصورنا غير قطعان من العبيد ، وأكوام من نفايات الخلق ، صورهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى الْأُمَمُ عَلَيْكُمْ كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، قَالُوا : أَوَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : لَا بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ . قِيلَ : وَمَا الْوَهْنُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ . . قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ »[2].

أيها المسلمون : إن الحقيقة الكبرى فى حياة هذه الأمة ، وفى عمر نهضتها هى الدين ، ومن هذه الحقيقة الكبرى تبزغ حقائق جزئية ، لا بد أن نعيها ونحن نخوض معركة النهضة ، وقد رأيتم أهمية الأخلاق الدينية فى بناء نهضة الأمة ، والأخلاق الدينية هى دعوة الله إلى الحياة وإلى النهضة ، وبقى أمامنا حقيقة أخرى دعا إليها الدين ، وأكد على توفيرها لكل فرد فى الناس ، هذه الحقيقة هى العلم ، العلم الذى يبدأ مع الإنسان من المهد إلى اللحد ، العلم الذى يبحث فى صنع الله ، ونواميس كونه ، ويبحث فى الأرض وما

(١) سورة آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠ .

(٢) رواه الترمذى .

يخرج منها ، وفى السماء وما يدور فيها ، كما يبحث فى تاريخ الماضين ، وسيرة الأولين ، وكيف عاشوا ، وكيف بادوا . . . العلم الذى يوفر للإنسان على الأرض الرخاء ، والصحة ، والقوة . العلم الذى يكون عوناً للشعب فى أيام السلم ، وعدة له فى ساعات الحرب .

وأخيرًا : العلم بالله ، وبكتابه ، وبآياته المحكمة ، وبأوامره ونواهيه : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)[1] .

هذا العلم هو الدعامة الكبيرة فى بناء النهضة ، وهو الذى اصطنعه أسلافنا ، فسبقوا العالم فى مضمار الحضارة والتقدم ، وخلفوا للإنسانية تراثاً مجيدًا من المعرفة ، أخذته أوربا لتصنع من معلوماته حضارة القرن العشرين ، بما حققته من انتصارات رهيبة فى ميدان الطبيعة ، والفلك ، وفى السيطرة على قوى خارقة أودعها الله قلب الذرة : (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[2] .

فيأيها المسلمون : أنتم الآن على أبواب نهضة شاملة ، وقد وقفتم على مفترق طرق ، تتطلعون إلى النماذج المعروضة عليكم ، ماذا تأخذون من مناهج الأمم ، وماذا تدعون ؟ . . ولقد عرض الله عليكم منهجه فى كتابه حين قال : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ، ولقد ضمن الله سبحانه لمن اتبع منهجه أن يؤتيه المجد والرفعة التى ينشدها حين قال : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)[3] ، وحين قال : (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ

(١) سورة الأنفال : ٤٢ .
(٢) سورة يونس : ٦١ .
(٣) سورة الزخرف : ٤٤ .

كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[١] ، أى فيه عزكم ومجدكم فى الدنيا ، وفى الآخرة .

وليس أمام المؤمن خيار حين يطالع هذا الذكر الربانى ، وحين يشارف بروحه هذه النفحة الإلٰهية ، فى كلام رب العالمين ، وقد رأيتم ما دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم أمته حين أراد الله لهم أن ينهضوا ، ويتقدموا الأمم فى مضمار الحضارة ، وما زالت آيات الله ترن فى الآذان ، وتدق أبواب القلوب ، وتلح على هممكم أن تعودوا إلى كتاب ربكم ، وسنة نبيكم ، فليس وراءهما منهاج لمؤمن ، وليس دونهما وسيلة إلى نهضة ، مهما برقت المذاهب والدعوات الجديدة ، ومهما خرجت على الناس أصوات ملحدة تدعوهم إلى الانحراف عن الحق ، وتزين لهم أفكار الغرب وأديانه ومذاهبه ، فكل ذلك هباء ، وأمره موقوت ، ثم لا يكون بعد ذلك عاصم إلا كتاب الله : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ)[٢] .

اتقوا الله أيها المسلمون ، واذكروا دائماً أن النهضات ليست حالا دائمة لأحد ، فالناهضون اليوم متخلفون غداً ، والمتخلفون اليوم ناهضون غداً ، لأن هذه هى سنة الحياة التى كتب الله ألا تتخلف أو تتبدل : (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)[٣] ، (سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)[٤].

وقد أشرقت الحضارة على هذه الأرض المسلمة يوم هب أسلافنا من نوم القرون ليحملوا رايتها ، ويضيئوا شعلتها للبشرية ، فلما ضعفت أيديهم

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠ .
(٢) سورة الرعد : ١٧ .
(٣) سورة آل عمران : ١٤٠ .
(٤) سورة الفتح : ٢٣ .

عن حمل الراية تقدم من الأُمم من يحملها ، لأن راية الحضارة لا بد أن تظل مرفوعة ، ولا بد أن يقبض الله من يحملها من خلقه ، وقد مضى من الزمن ما هو كفيل بتربية هذه الأُمة وإعدادها لاستعادة الراية ، ورفعها باسم الإسلام الخالد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإذا تخاذل إيمانكم عن شرف المعركة وآثرتم أن تذوبوا فى كيان غيركم من الأُمم ، واكتفيتم بالمقعد الخلفى حين يحرص الآخرون على مقعد الصدارة ، سجلتم للأجيال القادمة وللتاريخ أنكم لستم جديرين بالانتساب إلى أمة محمد ؛ ولستم أهلا لحمل أمانة دعوته .

فليس أمامكم واللهِ سوى العودة إلى كتاب الله ، والاعتصام بحبله المتين ، من أجل حرية الإنسان المسلم ، ومن أجل توفير العدل والمساواة بين الناس ، ومن أجل رضوان الله فى الدنيا والآخرة : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[1] . . . (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[2] . . . (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)[3] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هَذَا الْقُرآن طَرَفُهُ بِيَد الله ، وطرفه بِأَيْدِيكُم ، فَتَمَسَّكُوا به ، فَإِنكُم لَنْ تَضلُّوا ، ولَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبدًا »[4] .

وعنه أنه قال : « إن الله قَدْ أَعْطَى كلَّ ذى حَقٍّ حَقَّه ، ألا إنَّ الله

(١) سورة الحج : ٤٠ و ٤١ .
(٢) سورة القصص : ٨٣ .
(٣) سورة القصص : ٥ .
(٤) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

قَدْ فَرَضَ فَرائضَ ، وسنَّ سُنَنًا ، وحدَّ حدودًا ، وأَحلَّ حلالاً ، وحرَّم حراماً ، وشرع الدين فجعله سهْلا سمْحاً واسِعاً ، ولَمْ يجْعلْهُ ضيقاً ، أَلا إنه لا إيمان لمن لا أَمانَةَ لَهُ ، ولا دين لمَنْ لا عهد لَهُ ، ومن نَكَثَ ذِمَّةَ الله طَلَبه ، ومنْ نَكَثَ ذمَّتِي خاصمْتُه »[1] .

(١) من حديث رواه الطبرانى .